الفصل الأول

الوظائف العقائدية والأسطورية لمفهوم «الغرب»

قد نَعْجَب للاستخدام الكثيف لمفهوم الغرب في كل أنواع الخطاب التاريخي والفلسفي التي نطق بها الأوروبيون خلال القرن المنصَرم. إذ من شأن هذه الخطب أن تُسقِط على هذا المفهوم الجغرافي، بُعداً جغراسياً وانفعالياً عاطفياً على السّواء. ولعل فلاسفة وعلماء الاجتماع الألمان، وعلى رأسهم كل من هيغل (Hegel) وڤيبير (Weber)، هم الذين أسْهموا أكثر من غيرهم في اصطناع الوعي بمصير «غربي» تتشارك فيه الشعوب الأوروبية. لكن الرومنسية والصوفية الألمانيتين لن تلبثا أن تُدْخِلا هما أيضاً في القرن التاسع عشر وخلال النصف الأول من القرن العشرين - كما سنراه لاحقاً - أشكالاً من الفكر تُضْمِر عدائية عنيفة لتصوّر العالم المنبَثق من الليبرالية الإنكليزية ومن فلسفة عصر التنوير اللتين تدَّعِيان كونيَّة، عَمِل الموسوعيون الفرنسيون على تطويرها ونشرها.

في منابِت الفكر الغَرْبَوي

ولن يطول الأمر بهذا الموقف «الاحتجاجي» الألماني حتى يجد له أصداءً في كل ثقافات أوروبا. فالخطوات الخارقة السريعة التي حقّقها تقدّم حركة التصنيع، والنزوح التدريجي عن الأرياف، والتوسّع الذي طال التجمّعات المُدُنِيّة الضخمة ،

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

والانحطاط فالاندثار الذي لحق بالمجتمع الأرستوقراطي، وزوال العادات المسلكية المستَلْهَمَة سابقاً من الأخلاق المسيحية الطّابع: كل هذه التغيّرات شكّلت عوامل أنتجت هذه المواقف الرافضة لتلك التغييرات في صلب الفكر الألماني، وهي مواقف انتشرت أيضاً، كما سنرى في الفصل الخامس من هذا المؤلَّف، في الثقافات الأوروبية الأخرى. غير أن الفكر الألماني كان، وفي نهاية القرن الثامن عشر، عامِلاً مركزياً في فلسفة عصر التنوير، على أثر فكر عمانوئيل كانط (Emmanuel Kant) الذي ذهب به إلى طَوْرِه الأكثر رِفْعَة، والأكثر إثارة للحماسَة.

وثمَّة سلالة من الوجوه الفلسفية الكبرى - من فِيخْتِه (Fichte) إلى هِيرْدِر (Herder)، مروراً بكل من شلّينغ (Schelling)، ونيتشه (Nietzsche) وتوماس مانّ (Thomas Mann) - ستقود المعركة ضد الميْل إلى وضع تصوّر كوني للعالم أتى به عصر التنوير، وتمّ وصفه اعتباطياً من قبَل الرافضين له على أنّه مادي ومَنْفَعِي، وسرعان ما أمسى هذا التصوّر المتوَلِّد من النهضة الإيطالية، ثم من الفكر الليبرالي الإنكليزي، وأخيراً من الفكر الفرنسي الثَّوْرَوِي، موضع اتهام داخل الثقافات الأوروبية عينها، كما في التأثيرات والنتائج التي تمخَّض عنها في بيئته الروسية، طالما أنَّ رُقْعَة الرَّفضِيّة الألمانية اتسعت أيضاً كما بقعة الزيت في روسيا.

هناك إذن مفارقة قوية تثير التساؤل بشأن هيكلية وآلية عمل الهوية العملاقة العابرة للقوميات الأوروبية والمشار إليها بمصطلح «الغرب»، ذلك أن التاريخ البالغ التنوع والتباين للشعوب الأوروبية، كما لثقافاتهم وأفكارهم الفلسفية الأكثر تناقضاً، يُنْظَر إليه على أنه تاريخ موحَّد، على الرغم من كل التناقضات، في رؤية تاريخية وفلسفية لمسار متواصل متماسك لهذه الهوية العابرة للقوميات المسمّاة «غرباً». وكما سنرى، كثرٌ هم الذين أسْقَطوا هذا المصطلح على الإنجاز التوحيدي الذي اضطلع به شارلمان (أو شارل الأول الكبير) (Charlemagne) في القرن التاسع، حتى ولو زالت الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة لتترك المكان شاغراً أمام تشرذم أوروبا إلى كوكبة من الكِيانات السياسية واللّغوية والثقافية. وعلى الرغم من هذا الواقع التاريخي، فإنَّ جميع الباحثين والمؤرخين والفلاسفة وعلماء الاجتماع الأوروبيين، مِمَّن انتمَوْا إلى القرن العشرين، سيكرِّسون مفهوم الغرب هذا، بوصفه هُوية عملاقة، من المفروض أنها تتجاوز كل الاختلافات بين الشعوب الأوروبية، بالرغم من الحروب،

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

والشّقاقات الدينية، والتمزُّقات القومية والعقائدية التي باعدت على مرّ التاريخ بين الأوروبيين. وبهذا، يصبح الغرب ذلك الكيان الأسطوري الطابع وموطناً للخيال الجامح وحدّاً مهيباً للعقل وآلة تنتج غَيْرِيَّة قوية، بل قل جذرية ومنيعة بين الشعوب والأمم والثقافات والحضارات.

وكلما غزت الأمم الأوروبية الكبرى العالم، محطمةً الحدود الجغرافية واللغوية والإنسانية التي تفصل بين القارات وشعوبها، كلما تصلَّبت حدود العقل وآفاق الفكر في موطن الخيال الأسطوري والانفعالي المسمّى «غرباً». وإلى هذه التسمية، تُنْسَب قِيم دائمة ذات الخصوصية يستحيل تجاوزها كما تستدعي الحاجة إلى الأمن الكامل والشامل، ذلك أنَّه ينظر الغرب إلى نفسه وكأنَّ رخاءه مهدد، ونظراً لإمكانية أن يتحوّل تفوّقه الهَشّ إلى انحطاط، مما يهدّد مصير غزواته واحتلالاته المجسِّدة لتفوّقه. وبهذا، يصبح الغرب في المخيّلات الأوروبية، كائناً حياً من لحم ودم، يعود تواجده إلى أواخر القرون الوسطى على الأقل، ويتميّز بذلك القدر الاستثنائي، الذي يُجيز له بتغيير العالم، متصدّياً لكل المخاطر والعقبات أمام تطوّر الحضارة وسعادة ما تبقى من الكرة الأرضية.

وإذ يتمثَّل بآلهة الإغريق، لا يلبث هذا الكائن الأسطوري ذو الجوهر المطلق، المسمّى «غرباً»، أن يُبْرِز ويولّد مخلوقات أخرى، سرعان ما تصبح عناصر أساسية في عائلته المباشرة، فتسمح له بتجاوز إطار القارة الأوروبية، فلا تعود هي وحدها المعنِيَّة به. إذ تقوم كل من الولايات المتحدة وكندا وأستراليا بإعطائه بعداً استثنائياً في الفضاء الجغرافي، فيما تُسْبِغ عليه جذوره الإغريقية - الرومانية، أو تلك التي يعود جذورها حسب بعضهم إلى أبعد من ذلك في الزمان، أيْ إلى ولادة الديانة التوحيدية الأولى، مما يعطي لمفهوم الغرب بُعداً استثنائياً هو الآخر في الزمان. وإذ بهوية عملاقة فعلاً، ذات نطاق تاريخي وآخر جغرافي متَّصِفَين بالاتساع، تنبثق من أصغر قارات الكرة الأرضية وتتطور في نسق أسطوري. وكما في كل الأساطير، لا يمكن للحدود إلّا أن تُبقي على إبهامها وغموضها. فهل أنَّ أميركا اللاتينية واليابان وتايوان وإسرائيل هي فضاءات «غربية» جغرافياً، وهل هي تشكل جزءاً من الهوية العملاقة، أم أنها فضاءات تابعة وقتياً للغرب ليس غير؟ ومن وجهة النظر التاريخية، أتعود الوجوه الكبرى التي تتجذّر فيها الأسطورة إلى النبي موسى أم فقط إلى بيركليس (Périclès)

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

الإغريقي (495-429 ق.م) وهو أكبر رجال الدولة في أثينا؟ أتعود إلى يسوع المسيح أم إلى شارلمان وشارل الخامس المعروف بشار لكان (Charles Quint)؟ أتعود إلى لوثر (Luther)، الراهب الذي قاد الثورة البرتستانتية ضدّ كنيسة روما أم إلى هيغل؟ سنرى على امتداد صفحات هذا المؤلَّف التنوع البالغ للسَّرديات الميثولوجية حول ولادة الغرب أو ولادة أوروبا، على فرضية أن واحدهما أم الآخر فضاءَ حضارة واحَدة متلاحمة ومتجانسة ورشيدة.

في الواقع، لَقِيَ مفهوم الغرب، ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية، قَبولاً وإقراراً وإرساءً في الوجدان الأوروبي لدرجة أضحى معها كلُّ نقد يطاله، وكل موقف يتصدّى له عبر تفكيك موطن الخيال الذي اصطنعه، يثير في أغلب الأحيان ردّات فعلٍ عدائية. فعندما لا يكون النّاقد أوروبياً، يندفع الاتّهام بالعداء للغرب، لينصَبّ عليه كما اللَّعنة. أما الأوروبيون الذين يُقدمون على انتقاد الغرب، ويكيلون له القَدْح والذَّم، فهم يهاجمون أكثر من غيرهم النمط الغربي في الحياة، وبالتالي النزعة إلى «تغريب العالم»، وما ينتج عنها من أضرار على المستويات المختلفة. غير أنهم لا يشكّون بتاتاً في وجود غرب شبيه بكائن حيّ من لحم ودم، له مغامراته ومِحَنه، كما له نجاحات وإخفاقات. ذلك أن آلية عمل المخَيِّلَة الميثولوجية التي شكلَّت تلك الهوية العملاقة ونظّمتها، ليست، على العموم، قابلة للخضوع للانتقاد ولا للتفكيك. حتى أنَّ الماركسية الأوروبية، التي مارست أعنف أساليب النقد للمجتمع الأوروبي المثير للفتنة فيما بين الأوروبيين، لم تدخل في مسار ذلك التفكيك، بل تورَّطت فيه. فالفكر الماركسي، الذي ورث تقاليد متنوعة زخرت بها الثقافة الأوروبية، ينتقد الرأسمالية الأوروبية، فيعمل على تفكيكها بقوة، ولكنه يرى فيها أيضاً أداة تضمن تعميم التقدّم والحضارة على مستوى العالم ككل، علماً أن هذا النهج الأنموذجي الغربَوي في التفكير يجد له مَنْبِتاً في الفلسفة الألمانية الهيغلية الإلهام.

ومن ناحية ثانية، لم نجد أثراً في الأدبيات السياسية والتاريخية والفلسفية لظاهرة حرب الأفكار والرؤى حول تطوّر العالم ومصيره، التي مزَّقت القارة الأوروبية وحتى قبل أن تنتشر خارج أوروبا لتجد لها مستقراً في الثقافات الأخرى. إذ كلَّما استُذْكِرَت نجدها مختصرة بشكل كاريكاتوري في مقارعة نظامين توتاليتاريين هما الفاشية

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

والشيوعية، فلا توضَع في سياق معمَّق، ولا تُدَعَّم بأبحاث تاريخية تستفيض في شرح ماضي أوروبا السياسي والفلسفي، وما تخبَّطت فيه من تمزّقات وشِقاقات. فإذا بالحروب والاضطرابات والأعمال العُنْفِيَّة التي دمغت تاريخ القارة الأوروبية منذ عصر النهضة، تُبْسَط كما لو أنها حركة موحّدة لصياغة الهوية الأوروبية، وبالتالي الغربية. ومن ناحيتها، تُدرَج الحروب الدينية المروّعة في حِقبَة تاريخية سمّيت بـ «الإصلاح»، مع ما تتضمّن هذه التسمية من مفارقة ؛ فيما أطلقت تسمية «ربيع الشعوب»، على تفجّر القوميات الحديثة والحركات الثورية المتنوعة النماذج والأنماط. وكذلك يمكن إدراج الأفكار الإثنية المنمّطة، وبخاصة تلك المتعلّقة بالصور الأكثر تحقيراً للأوروبيين المتديِّنين باليهودية، تحت غطاء التطور اللاحق بالأنثروبولوجيا والنظريّات حول الأعراق واللغات. أما الأحداث الدموية والدراماتيكية التي شهدها التاريخ الأوروبي الأقرب عهداً والمؤدِّية إلى الحرب العالمية الثانية، فقد تمّ وضعها بشكل تجريدي في مرتبة المثال للصراع بين الأنظمة التوتاليتارية وتلك الديموقراطية، أي بين كل من الخير والشر. ولقد كان لهذا النوع من التوصيف أن دامَ خلال الحرب الباردة، قبل أن يجد له امتداداً حتى أيامنا هذه في أيديولوجية «حرب الحضارات».

وفي الواقع، يجتنب هذا النمط التوصيفي الاستيضاح المباشر حول طبيعة الديناميّة التدميرية لصراع الأفكار والأنظمة الفلسفية التي أنتجتها الثقافات الأوروبية. زِد على ذلك أنه يسمح بالإبقاء على وَهْم الهوية العملاقة العابرة للقوميات المُسمَّاة غرباً، مجسِّداً بذلك الطَّوْر الأكثر تقدّماً للحضارة ومُضْفِياً ضَرْباً من الامتيازات والتّفوق ورِفعة الشأن في صلات الدول المتجَمّعة تحت الراية السياسية والاقتصادية «الغربية».

ولهذا السبب، نعتبر أنه من المفيد هنا أن ننكَبَّ على تحليل النشأة التكوينية العائدة لهذه الأسطورة، أي للغَرْبَوِيَّة، بوصفها هُوِيَّتِيَّة شمولية، ولوظائفها، ولآليتها الإجرائية، ولمقاصدها، وما تروّضه من وسائل تضمن تحقيقها. وبالفعل، فإن الغربوية عقيدة ثقيلة الوطأة وشمولية ، لأنها تزعم الهيمنة والتنظيم على كل الأشكال الأخرى للهويات الخاصة بكل شعب أوروبي، أي الهويات اللغوية والثقافية، والهويات الدينية، والهويات المناطقية الإقليمية، وتلك الإثنية، والهويات القومية. ومؤخراً، وجدت الغربوية تعبيرها الأفضل والأنجز في فكر جامعي أميركي، هو ساموئيل

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

هنتينغتون (Samuel Huntington)، أشاع في العامة مفهوم «صراع الحضارات»[1]. وخلال بضع سنوات، أمكن لهذا المؤلَّف ذي النوعية الفكرية الرّديئة أن يصبح، وبفعل ما حقَّقه من نجاح دُولي، التعبير الأكثر تقدماً للغربوية ، أي عقيدة انتمائية مناضلة جديدة، حَلَّت محلّ القوميات الأوروبية التقليدية الكبرى.

ويَغْرِف مفهوم «صراع الحضارات» هذا مباشرة من قديم التقاليد الفكرية الأوروبية المتنوعة، ما يشرح نجاحه. ولا يجدر بنا أن ننسى هنا مؤلَّفات برنارد لويس[2] حول الإسلام وغيريَّة هذه الديانة - المفتَرَض بها أنها مطلقة ، وتكوّن بالتالي خطراً بالنسبة إلى الغرب -، التي جاءت لتدعم أفكار هنتيغتون. وفي الواقع لا يفعل كل من لويس وهنتينغتون سوى استعادة اللغة الأكثر قِدَماً المستعملة في المناظرات الجدلية الإسلامية-المسيحية التي عرفتها القرون الوسطى، وعلى وجه عام استعادة النظرة التحقيريّة التي كان يُنْظَر بها إلى الشرق. غير أنَّ لويس وهنتينغتون يعملان أيضاً على إعادة إحياء النزاعات والجدالات التي كان لها في الماضي أن أثارت الاضطراب في الثقافات الأوروبية المختلفة عينها، وفي ما أنتجته من رؤى متناقضة عن العالم. زِد على ذلك أن إدراك الأمر يقتضي منا - كما سنفعله على امتداد صفحات هذا المؤلَّف - الانكباب على استقصاء هذه التقاليد الفكرية، ما سيدفعنا إلى التجوّل في الرّؤى الأوروبية المتنوعة عن العالم، حيث تستَمِدُّ الأسطورة «الغربية» أصولها.

---

(1) انظر صاموئيل هنتينغتون، صراع الحضارات, Samuel Huntington, *Le Choc des civilisations*, Odile Jacob, Paris, 1997. ولقد صدرت النسخة الأصلية للكتاب بعنوان:

The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order, Simon & Schuster, New York, 1996.

(2) انظر مؤلَّف برنارد لويس المشار إليه آنفاً:

Que s'est-il passé? L'islam, L'Occident et la modernité.

وانظر أيضاً مؤلَّفه الصادر بعنوان الحشّاشون، إرهاب وسياسة في الإسلام القَروسطي:

Les Assassins, *terrorisme et politique dans l'islam médiéval*, Berger-Levrault, Paris, 1982.

وتجدر الإشارة إلى أن مؤلَّفات برنارد لويس قد تطورت من استشراق تقليدي (أو كلاسيكي) علمي مستفيض، وبخاصة في مباحثه حول السلطنة العثمانية، إلى مواقف سياسية وأحكام تقويمية متنامية في تحقيرها للعرب والمسلمين على العموم.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

فكل شيء انطلق من أوروبا، تلك القارة الفائقة الغِنى والتنوّع، ومن عبقرياتها المتنوعة. وتكمن صعوبة المهمة التي نتولاها هنا في تنوع مناهِل الإلهام، ورؤى الأوروبيين المختلفة بشأن تحديد اللحظات التاريخية التأسيسية، والتي هي لحظات أسطورية بكل ما في الكلمة من معنى والمرتكزة على أنماط مختلفة من قراءة التاريخ: اليونان القديمة؛ الحضارة الرومانية وسيادة الثقافة اللاتينية؛ التوحيد اليهودي؛ المسيحية الأوروبية الشمولية للقرون الوسطى وتعارضها مع مسيحية الإمبراطورية البيزنطية؛ الغزوات البربرية ، وبخاصة منها غزوات القبائل الجِرْمانِيَّة، التي بات يُنْظَر إلى تراثها بشكل مثالي ومضخّم في تقاليد القرن التاسع عشر الفلسفية والأدبية؛ الحروب الصليبية؛ طرد كل من المسلمين واليهود من الأندلس؛ عصر التنوير؛ المُحْرَقَة.

ولا يسعنا إلّا أن نقف حائرين أمام الغِنى التاريخي الذي تزخر به المواريث التي تنتسِب إليها الثقافات الأوروبية وما تنطوي عليه من تنوعات من جهة؛ ومن جهة أخرى الإفْقار الذي طال الفكر في «غربوية» ما عادت تُعنى بالدقائق التاريخية والفلسفية، ولا بالكوزموبوليتانية (أيْ المواطنية العالمية المتحرّرة من الأحقاد المحلّية والمذهبية والإثنية والقومية) ولا الإنسانوِيّة الرفيعة الشأن . علماً أنَّ تلك هي الصفات التي ميَّزت الحضارة الفرنسية، يوم بلغت قمة التهذيب واللّباقة وبالتالي ازدهارها، أي وقت كانت أوروبا «فرنسية» الهوى والثقافة بامتياز، في زمن عجَّ بعباقرة من أمثال مونتين (Montaigne) وديكارت (Descartes)، ومونتسكيو (Montesquieu)، وڤولتير (Voltaire)، وروسّو (Rousseau)، وديدورو (Diderot)، وبايْل (Bayle) وكثيرين غيرهم. ومن المؤكد أن هذه الثقافة الفرنسية لم تندثِر كليّاً، إذ استمرت الفلسفة الفرنسية في إشراقها وإشعاعها ليس فقط في أوروبا، وإنما أيضاً في العالم الأنكلوسَكْسُوني وغيره خارج الدائرة الغربية: فلقد عمد كل من فوكو (Foucault)، وليوتار (Lyotard)، وليڤيناس (Levinas)، وديريدا (Derrida)، ودولوز (Deleuze)، ولاكان (Lacan) على إدامة التقليد الفرنسي في العمل الفكري الأنيق الدقيق، والثاقب النافِذ في أغلب الأحيان، حول المصير الإنساني، وحول ما يصنع أغلاله أو ما يحرّره.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com
Uploaded By: Linda Hamdan

أركان العقيدة الغَرْبَوِيَّة، أو الآلة الصّانِعة للغَيْرِيّة الجذريّة

وعلى الرغم مما تقدَّم، تبقى الغربوية كائنة في كل شيء، فهي تضع التخوم والحواجز أمام التّفاعلات الثقافية، كما أمام موطن الخيال، أيْ كما يقول مارك كريبون (Marc Crépon)، مؤلِّف «جغرافية الفكر»[3]. ولا بدَّ في هذا الخصوص من الإشارة إلى موجَز صغير صدر مؤخراً بعنوان ما هو الغرب (*Qu'est-ce que l'Occident*). يتناول التعريف بأصول الغربوية، وهو يُبْعِد أي تأثير خارجي عن عبقرية الغرب . وإذ يحرِص على حصر مفهوم الغرب في إطار معيَّن وعلى تحديد ما يسمّيه بـ «نشأته التشكيلية الثقافية»، يضع المؤلِّف، فيليب نيمو (Philippe Nemo)، وهو جامعي فرنسي، لائحة من خمسة أحداث أساسية، يستعرضها معتمداً الترتيب التالي:

«1) ابتكار الإغريق لكل من المدينة، والحرية في ظل القانون، والمعرفة والمدرسة؛ 2) ابتكار روما لكل من القانون، والمُلكية الخاصة والفرد والإنسانوِيَّة؛ 3) الثورة الأخلاقية والأُخرَوِيَّة التي أتى بها الكتاب المقدس المسيحي والمتمثّلة في البِرّ والإحسان المتجاوزَيْن للعدل، وفي إخضاع الزمن الأفقي للضغط الأُخْرَوي، وهو الزمن التاريخي؛ 4) "الثورة البابوية"، التي دامت بين القرنين السادس والثالث عشر، والتي اختارت استخدام العقل البشري المُتَجَلّي في وجهين، أحدهما المعرفة الإغريقية، وثانيهما القانون الروماني، بغية إدراج الأخلاقيات والأخرويات التَّورَاتية في التاريخ، محقّقَةً بذلك أول توليفة حقيقية بين "أثينا" و"روما"، و"القُدْس"؛ 5) الإعلاء من شأن الديموقراطية الليبرالية والعمل على تشجيعها، وهي التي أُنجزت بفضل ما اتّفق على تسميته بالثّورات الديموقراطية الكبرى، التي وجدت لها حيّزاً في كل من هولندا، وإنكلترا، والولايات المتحدة وفرنسا، قبل أن تتواجد بشكل أو بآخر في كل دول أوروبا الغربية الأخرى. وما دامت التَّعَدُّدِيَّة هي أكثر فعّالِيّة من أي نظام طبيعي أو اصطناعي آخر في الميادين الثلاثة أيْ العلم، والسياسة والاقتصاد، فإنَّ

---

(3) وبشأن هذا المفهوم الذي سنعود للكلام عليه، انظر مارك كريبون، *جغرافيات العقل*، الصادر باللغة الفرنسية تحت عنوان Marc Crépon, *Les Géographies de L'esprit*, Payot, Paris, 1996.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

الحدث الأخير [أي الخامس في اللائحة الآنفة الذكر]، هو الذي زوّد الغرب بقدرة فائقة على التطور لم يسْبق لها مثيل، وهي التي، سمحت له بإنجاب الحداثة»[4].

وكما نرى، فإنَّ اللائحة التي يضعها هذا المؤلِّف ليست لائحة بالأحداث، وإنما بالعوامل المحتَمَلة التي قد تكون أسهمت في تشكيل الفكر الغربي. ومن ناحية أخرى، تجدر الإشارة إلى افتقار اللائحة المذكورة أعلاه إلى التجانس افتقاراً كليّاً، لانعدام الترابط بينَ المراحل الزمنية المختلفة اختلافاً للعوامل المذكورة، كل واحدة منها متباعدة تباعداً بالغاً عن الأخرى في الزمان والمكان: من قُدامى اليهود إلى إغريق العصور القديمة، مروراً بالبابوية والليبراليين الإنكليز، والهولنديين، والأميركيين، والفرنسيين. غير أنَّ المهم في الأمر - وهو ما سنراه لاحقاً - بالنسبة إلى كل الذين يكتبون بغرض دعم الأسطورة، هو «البناء التاريخي» المعظَّم، أيّاً كان الطابع المصطَنَع لتشكيلة اللحظات التأسيسية المختارة، أو الأحداث، أو المواريث المستَنَد إليها في «النشأة التكوينية» للغرب. وفي أية حال، فلقد أجاد هذا المؤلِّف في التعبير عن الرؤية العقائدية القَطْعِيَّة والأسطورية لعقلانية تاريخ الغرب بتأكيده:

«في الواقع، يمكن التعريف في مقارَبَة أولى بالحضارة الغربية، بدولة القانون، والديموقراطية، والحريات الفردية، والعقلانية النقدِيّة، والعلم، والاقتصاد الحرّ المرتكز على الملكية الخاصة. غير أنَّ ما من شيء في كل هذا الذي سبقنا إلى ذكره، «طبيعي»، بل إنّ كل هذه القِيم وكل تلك المؤسسات هي ثمرة بناء تاريخي طويل الأمد»[5].

وكما لو أنه يسعى إلى إثبات أنَّ عبقرية الغرب هذه ليست مَدينة بأي شيء للاتصال بالثقافات الأخرى، يحرِص المؤلِّف على التأكيد على الخاصِيَّة الذاتية الصِّرْف ذات الطبيعة الوراثية والجوهرية العائدة لعقلانية الغرب العليا تلك. إذْ يجزم بأنَّ الاتصال بحضارة الشرق الإسلامي المجاورة لأوروبا المرتبطة بها بصلات عدة، لم تلعب أي دور في ازدهار الحضارة الغربية، فيكتب قائلاً:

---

(4) انظر فيليب نومو، ماهية الغرب Philippe Nemo, *Qu'est-ce que l'Occident?* PUF, Paris, 2004, p. 7-8.

(5) انظر المصدر السابق، ص 7.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

«أن لا يكون الفكر الغربي مَديناً بأي شيء جوهري للعالم الإسلامي، هو ما لدينا عليه إثباتٌ غير مباشر، يتمثَّل في واقع أنّ فلسفة ابن رشد لم تجد لها في الإسلام عينه أي أفق مستقبلي. ذلك أنَّ المجتمعات الإسلامية لم تعرف في أعقابها التطور نفسه الذي برز في العقلانية والعلوم، ولا العبقرية التغييرية، وهما الميزتان اللتان اتُّصِفَت المجتمعات الغربية بهما. وفي هذه الظاهرة، إشارة واضحة إلى أن ثمة عقلية أخرى كانت تسود الإسلام. وما يسعنا أن نقرأه حول هذا الموضوع في الأدبيات المعادية للغربوية، إنما هو ضعيف جداً فكرياً. ويعود تخلّف الإسلام في مجالات العلوم والتقنيات والتطور الاقتصادي، في نظر هذه الأدبيات إلى "القمع" الاستعماري الذي تعمَّد "الحدَّ" من تطوره ونموّه، فكان ضحية هذا القمع[6]. إنَّ هذه الطريقة في طرح الأمور تفتقِر إلى المنطق. فلو احْتكم الإسلام في ثقافته إلى عناصر تسمح له بالتطور الذاتيّ ، لكان تطوَّر وتقدّم، ولما كان له ربما أن خضع للاستعمار. ولو لم يعرف الإسلام إلّا تخلّفاً، لكان الاستعمار هو نفسه أتاح له سَدَّ الفجوة وتغطية العجز، كما حصل في اليابان. ومن هنا، ينبغي الاعتقاد أن الإسلام، وبخاصة عندما يتعلق الأمر بالتطور العلمي والاقتصادي، يعاني في العمق من مشكلة مع نفسه، أقصد مع العلاقة بالعالم التي تنطوي عليها هذه الديانة وتُمْليها على أتباعها، أي مع النمط المجتمعي الذي تولّده»[7].

وفي العام 2008، كرَّس المؤرِّخ الفرنسي سيلفان غُوْغَنْهايْم (Sylvain Gouguenheim) مَؤلَّفاً بكامله، هَدَف فيه هو الآخر إلى إقامة الدليل على أن أوروبا لم تكن مَدينة بشيء للإسلام، وإلى إثبات أن الثقافة الإغريقية لَقِيَت في أوروبا نفسها الحِفْظ والصَّوْن، وأن الحضارة العربية لم تأت فعلاً بما يُسْهم في معرفة أفضل

(6) انظر على سبيل المثال كتاب صوفي بيسّيس، الصادر بعنوان الغرب والآخرون Sophie Bessis, *L'Occident et les autres*, La Découverte, Paris, 2002, p. 55.

(7) انظر: Philippe Nemo, *Qu'est-ce que l'Occident?*, p. 142.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

للفلسفة الإغريقية[8]. وما أن أصدر كتابه هذا حتى نشرت صحيفة لوموند (Le Monde) على الفور عَرْضاً بمحتواه، فيه الكثير من المديح، بقلم روجيه بول-دروا (Roger Pol-Droit) الذي كتب قائِلاً:

«بل إنه ينبغي علينا، إذا ما تَتَبَّعنا مكنون هذا الكتاب، القيام بمزيد من إعادة النظر بأحكامنا. فعوض الاعتقاد بأنَّ المعرفة الفلسفية الأوروبية كانت تُدين كلياً للوسطاء من العرب، وجب علينا أن نتذكَّر الدور الرئيس الذي اضطلع به المترجمون القاطنون في دير جبل القديس ميخائيل (Mont-Saint-Michel)، الذين نقلوا كل أعمال أرسطو (Aristote) تقريباً من اليونانية إلى اللاتينية مباشرة، قبل أن يُعْمَد في طُلَيْطِلَة (Tolède) إلى ترجمة الآثار عينها، انطلاقاً من نسختها العربية، وذلك بعقود عدّة. وعِوض أن نتوهَّم أن العالم الإسلامي القروسطي، المنفتح والمِعْطاء، جاء فأهدى أوروبا السَّاكنة المتراخية والمظلمة وسائل توسّعها، وجب علينا أيضاً أن نستحضر إلى الذهن أنَّ الغرب لم يحصل على هذه المعارِف كما لو أنها كانت هدية، وإنما هو ذهب باحثاً عنها، لأنه رأى فيها ما قد يشكّل تكمِلة للنصوص التي كانت آنذاك في حوزته. ولقد انفرد الغرب في إخضاع هذه النصوص للاستخدام العلمي والسياسي المعلوم»[9].

---

(8) انظر سيلفان غُوْغَنْهايْم، أرسطو في دير القديس ميخائيل. الجذور الإغريقيّة لأوروبا المسيحية:
Sylvain Gouguenheim, *Aristote au Mont-Saint-Michel. Les racines grecques de l'Europe chrétienne*, Seuil, Paris, 2008.

(9) انظر العدد الصادر في الرابع من شهر نيسان/أبريل من العام 2008 من *Le Monde des livres*. وتجدر الإشارة إلى أن مؤلف غوغنهايم لقِي، بدعم من تقارير مَدْحِيّة أخرى نشرتها كبريات الصحف اليومية، نجاحاً باهراً في مبيعات الكتب، في سياق العلاقات المحمومة بين كل من الإسلام والغرب. غير أن المؤلَّف - محتوى ومنهجاً -، استدعى اعتراضاً شديد اللهجة مرتكزاً على حجج علمية، وقَّعه مئة من المؤرخين والباحثين من ذوي الاعتبار والنفوذ لاختصاصهم بتاريخ القرون الوسطى والفكر القَروسطي. ولكن الصحافة لم تنشر منه إلّا النَّذْر القليل أو ما ارتأت الاجتزاء منه.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

وبقدر ما يحتاج التعريف بالغرب إلى قُطْب نقيض يدعم الاقتناع ذا الطابع الأسطوري العائد لبُعْد هذه الهوية العملاقة ومنظورها، نرى جيداً كيف أنَّ كاتب هذه العقيدة الغَرْبَوِيَّة القطعية يستشعر الحاجة إلى إظهار دونِيَّة الشرق، المتجسّد هنا في الإسلام. ونجد أيضاً عند جاك إيْلّول (1912 - 1994) (Jacques Ellul)، وهو فيلسوف ذائع الصيت، تحذيراً أكثر شِدَّة وقسوة ضدّ السّعي إلى تحديد صلات القُرْبى بين الشرق والغرب؛ وهو ينبّه إلى المخاطر المتأتّية من اعتبار «اليَهُوْمسيحية» الغربية كما لو أنها كانت ترتبط بالإسلام بقرابة ما، مستَدْعِياً حُجَجاً لاهوتِيَّة واهية. وبالفعل، يستشيط إيْلّول غيظاً أمام الجهود السّاعية إلى التّخلي عن حواجز العدائية الفاصلة بين الإسلام من جهة، وبين اليهودية والمسيحية من جهة أخرى، بحجة أنَّ النبي إبراهيم هو السَّلف المشترك بين الديانات التوحيدية الثلاث. فيكتب جاك إيْلّول قائلاً:

«وبهذا نكون قد رأينا البَوْن الشاسع بين النَّسب اليهودي والنَّسب العربي، ثم بين النسب المسيحي وذاك العربي. وبكلام آخر، لا يعني التأكيد بأننا جميعاً أبناء إبراهيم أكثر مما يعني الإقرار بأننا جميعاً أبناء آدم! ذلك أنَّ في تسويغ القرابة بين المسلمين والمسيحيين انطلاقاً من هذه الحُجَّة، ما يفصِح عن تعميم في غير محلّه لافتقاره إلى أساس صائب يقوم عليه»[10].

البيان الآري لإرنست رينان (Ernest Renan)

في القرن التاسع عشر، تعامل إرنست رينان بالطريقة عينها مع المعجم المصطلحي والآفاق الفكرية لعصره، وذلك عندما عَرَّف على نحو متناقض ومتنافر الحضارة الغربية بالآرِيّة من جهة - وبالتالي بوصفها الوحيدة القادرة على التقدّم والارتقاء به إلى مرتبة التهذيب الرفيع للغاية للأخلاق والآداب -، ومن جهة أخرى،

---

(10) انظر جاك إيْلّول، الإسلام واليَهُوْمسيحية Jacques Ellul, *Islam et judéo-christianisme*, PUF, Paris, 2004 (préface d'Alain Besançon), p. 60.

وحول هذه المسألة المتعلقة بالأصول المشتركة للديانات التوحيدية الثلاث وأهميتها في التهدئة من اصطخاب صدام الرؤى عن العالم، انظر تالياً خاتمة هذا الكتاب.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

الفكر السَّاميّ، المتجسّد أساساً، في نظره، في الإسلام العاجز عن بلوغ الحضارة. وهكذا، أطلق رينان بطريقة حاسمة لا تجيز النقاش، في الخطاب الذي افتتح به في العام 1862، درس اللغات العِبْرية والكِلدانية والسِّريانية في مَجْمَع فرنسا (Collège de France)، سلسلةً من التأكيدات الأسطورية والعِرقيَّة الطابع، خصَّصها لتحديد ماهية المزايا الوراثية العُليا العائدة للحضارة الغربية، على نحو يُظهر فيه تناقضها مع الشّوائب والنّواقص، الوراثية هي الأخرى، المميّزة للشرق، فكتب قائلاً[11]:

«ما تزال إلى يومنا هذا الشعوب الهندية-الأوروبية والشعوب السَّامِيَّة على اختلافها الكامل. وأنا لا أقصد هنا اليهود، الذين كان لقَدَرِهم التاريخي المتفرّد والمثير للإعجاب أن خصَّهم بمكان استثنائي في الإنسانية؛ زِد على ذلك، أنه إن اسْتَثْنَينا فرنسا، التي رفعت في العالم مبدأ الحضارة المثالية الخالصة لاستبعادها وجود أي نوع من الاختلاف بين الأعراق البشرية، لوجدنا أنَّ اليهود يشكّلون، في كل مكان تقريباً، مجتمعاً على حِدة. أما العربي على الأقل، والمسلم بمعنى أوسع، فهو اليوم أبعد ما يكون عنّا. ذلك أن المسلم (لا سيما وأن الفكر السّامي بخاصة في أيامنا هذه يتجسّد في الإسلام) والأوروبي هما، في مواجهة واحدهما بالآخر، كائنان ينتمي كل منهما إلى جنس مختلف، لانعدام أوجُه الشَّبه والمشاركة بينهما في طريقة التفكير والشعور»[12].

وإذ وضع رينان هذا المبدأ في الاختلاف المتعذِّر تجاوزه بين الشرق والغرب، يتناول التوصيف الأسطوري الطابع قائلاً:

«لم يعرف الشرق أبداً، وبخاصة الشرق السَّامي، حيزاً وَسَطاً بين الفوضى الشاملة التي اتُّصِف بها البدو الرُّحَل من العرب، والطغيان الدموي والعبثي الجائر. (...) ولقد كان قدامى اليهود والعرب في بعض

---

(11) إن نَصَّ هذا الخطاب متَضمَّن في مؤلَّف لإرنست رينان، بعنوان ماهية الأُمة ودراسات سياسية أخـــرى *Qu'est-ce qu'une nation? Et autres essais politiques*, Presse Pocket, Paris, 1992, pp.182-200.

(12) المصدر نفسه، ص 188.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

الأحيان أكثر الناس حرية، شريطة أن يكون لهم في المستقبل قائدٌ يضرِب الأعناق على هواه. (...) وفي السياسة، كما في الشعر والدين والفلسفة، يبقى على الشعوب الهندية-الأوروبية، واجب البحث عن الأمور بكل دقائقها، كما عن التّوفيق بين المتناقض من الأمور وتعقيداتها المجهولة تماماً من الشعوب السّاميّة والتي سبق لتنظيمها أن اتُّصِف على الدوام ببساطة مؤسفة وقاتلة»[13].

يضيف رينان في مكان آخر من خطابه:

«ولكن هنا أيضاً كان كل ما مَتَّ بصلة إلى دقائق الفكر وإلى الأحاسيس الرفيعة وعميق المكنون، صَنْعَتنا. أما الشّاعرية، فلقد عُنِيَت في جوهرها بمصير الإنسان، وتقلباته وارتداداته واستعاداته السَّوداوية الحزينة، وبحثه القلق عن الأصول، وشكواه المحِقَّة من السماء التي لا تُنصفه. ونحن لم نَحْتَج إلى تعلّم ذلك من أحد. فالمدرسة الأبدية في هذا الصدد كانت على الدوام في ما تختلج به روح كل مِنّا. ونحن في العلم والفلسفة متمثِلون بالإغريق دون غيرهم. ذلك أن البحث عن الأسباب والدوافع والمعرفة للمعرفة هي أمور لم تبرز آثارها قبل اليونان، وهي أمور لم نتعلمها إلّا منها وحدها. أما عندما يتعلق الأمر بالفكر السَّامِيّ، فهو في طبيعته معادٍ للفلسفة وللعلم على حدّ سواء... وغالباً ما نسمع عن العلم والفلسفة العربيين... ولكن إن أمْعَنّا النظر في ما يقال بشأنهما، لوجدنا أن العلم العربي لم ينطوِ على أي أثر عربي؛ فمكنونه كان إغريقياً خالصاً؛ ومن بين الذين ابتكروه فأوجدوه، لم يكن هناك سامٍ حقيقي واحد؛ بل كانوا جميعهم من الأصل الإسباني أو العجمي يكتبونَ باللغة العربية»[14].

ويكمل رينان اندفاعته العقائدية القطعية هذه، مُقْصِياً الآخر من غير العرق الآري، فيؤكد قائلاً:

---

(13) المصدر عينه، ص 189-190.

(14) المصدر عينه، ص 190-191.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

«ومن جهة أخرى، يتَّصف الطبع الساميّ على العموم، بالقسوة وضيق الأفق والأنانية . ويتميَّز هذا العِرق البشري بالعواطف الجَيَّاشة ، والإخلاص والتفاني وطبائع فريدة من نوعها. ونادراً ما نقع فيه على تلك الرَّهافة في الشعور الأخلاقي الذي يبدو وكأنه خاصِيّة اقتصرت على كل من العِرقَيْن الجِرْماني والسَّلْتِي (celtique). أما المشاعر الرقيقة، العميقة، السوداوِيّة والحزينة، وتلك الأحلام الشَّغوفة باللامتناهي والمنطلقة في فضاءٍ لا حدود له، حيث تتداخل قوى الروح فتنصهر، وذلك التَّجَلِّي العظيم للواجب الذي هو وحده ما يوطّد من أساس إيماننا، ويرسّخ من ركيزة رجائنا وآمالنا، فهي كلها صَنْعَة عرقِنا، ونِتاج مناخنا»[15].

وبالإضافة إلى كل ذلك، يوصِّف لنا رينان الغرب متماثِلاً مع تاريخ المسيحية، فَيَطْوي بذلك في غياهب النسيان خمسة عشر قرناً من المسيحية الشرقية، بأدبياتها الدينية الغنيّة، وشروحاتها واجتهاداتها ونزاعاتها اللاهوتية، كما اثني عشر قرناً من الحضارة المسيحية البيزنطية. ولذلك يجزم دون أدنى تردّد قائلاً:

«أصبحت المسيحية، وقد امْتَصَّتها الحضارة الإغريقية واللاتينية، شأناً غربياً. فمع تبنِّينا للديانة السّامِيّة، عملنا على تغييرها بعمق. والمسيحية، كما تفهمها غالبية الناس، هي في الواقع صنْعَتنا. (...) ثمَّة نفوس رهيفة، حسّاسة وميّالة إلى الخيال الواسع، كصاحب كتاب الاقتداء[*] *(L'Imitation)*، كمتصَوِّفَة القرون الوسطى، كالقدّيسين على العموم، كانت تجاهر بديانة انبثقت في الحقيقة من العبقرية السّامية، ولكنها ما لبثت أن تحوّلت رأساً على عقِب بفعل عبقرية شعوب حديثة، وبخاصة منها الشعوب السَّلْتِيَّة والجِرمانِيَّة. فعمق العاطفية ذاك، وتلك الرِّقَّة المَرَضِيَّة نوعاً ما اللذان نشهدهما في ديانة فرنسيس الأسّيزي

---

(15) م.ن.، ص 192.

(*) والمقصود به كتاب الاقتداء بالمسيح (L'Imitation de Jésus-Christ)، الذي صدر في القرن الخامس عشر، ونُسب إلى الراهب الألماني توما أكمبيس (Thomas Kempis) (1379-1471). (م)

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

(François d'Assise)، وفرا أنجليكو (Fra Angelico)، كانا بالضبط نقيضَيّ العبقرية السّامية الجافة والقاسية في جوهرها»[16].

وينتهي خطاب رينان، في هذا الصّرح العالي الزّاخر بعلم فرنسا ومعرفتها، بدعوة لا تراجع فيها إلى حرب الحضارات، فيقول:

«في هذا الوقت، يتمثّل الشرط الأساسي الضامن لانتشار الحضارة الأوروبية، في تدمير الشيء السّامي تدميراً كاملاً، وفي تهديم السلطة الثيوقراطية التي تقوم عليها العقيدة الإسلامية، ذلك أنّ هذه الديانة لا تستطيع إلى الوجود سبيلاً إلّا كديانة رسمية. بينما يقع في الذوبان ويندثر عندما يتحول إلى ديانة حرّة وفردية. والعقيدة الإسلامية ليست فقط دين الدولة، على غرار الكاثوليكية في فرنسا، في ظل حكم الملك لويس الرابع عشر، وعلى غرار ما هي عليه اليوم في إسبانيا؛ وإنما هي الديانة التي تُقْصي الدولة، وهي تنظيم، وحدها الدول الحَبْرِيَّة (أيْ التي كان يديرها الحبر الأعظم) في أوروبا تقدر على تزويدنا بأنموذج عنه. هنا تستقر الحرب الأبدية، تلك الحرب التي لن تنتهي إلّا عندما يكون آخر أبناء إسماعيل قد لَقِي حَتْفَه بؤساً وشقاءً أو نفاه الرعب والهول إلى عمق الصحراء. والإسلام إنكار كامل شامل لأوروبا؛ والإسلام تعصّب، لم تعرف منه إسبانيا في زمن فيليب الثاني، وإيطاليا في زمن البابا پيّوس الخامس القديس إلّا الشيء القليل؛ والإسلام استخفاف بالعلم واحتقار له وقمع للمجتمع المدني؛ ومن شأن البساطة الفظيعة التي يتّصف بها الفكر السّامي أن تقلّص من الدماغ البشري، فتوصِده أمام كل فكرة مهذّبة وراقية، وكل شعور رهيف، وكل بحث عقلاني، لكي تضعه أمام كلام يكرر نفسه بشكل دائم دون أن يأتي بأي جديد إنما الله هو الله»[17].

وعلى ضوء ما تقدّم، يتّضح لنا أن رينان هنا إنما يخترع شرقاً سامِيّاً، يجد في الإسلام ما يجسّد كل شوائبه ونواقصه الأنثروبولوجية، فيتمكن بالتالي من إبراز عبقرية

---

(16) م.ن.، ص 196-197.

(17) م.ن.، ص 198.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

الغربِ المسيحي والآري، يكون حَسْب رأيه خالياً من أية علاقة بجذوره السامِيّة، وذلك على الرغم من التَّنْصير المتباطئ المتأخر لأوروبا، مقارنة بوتيرة التَّنصر في الشرق الأدنى.

وكما كل بناء فكري يبتغي ابتداع هُوية مشتركة بشكل اصطناعي، تتجاوز النمط الاتصالي الأكثر فطرية الذي يتمتع به الإنسان، أي اللغة، فإنَّه لا بد من اختراع هُوية نقيضة ومتعارضة مع تلك التي نسعى إلى بنائها. فالغرب هو، في الأساس، مفهوم جغرافي، وهو الجزء من الأرض حيث تغيب الشمس عندما يكون المرء في الشرق. ولكي يجد له وجوداً في نظام الأمور الفكرية، كما في الإدراك، يحتاج الغرب إذن إلى شرق. ولقد درجت اللغة الفرنسية، وهي لغة العقل والوضوح الذي لا لُبْس فيه، على استخدام لفظة *Levant*، أي المَشْرِق، للدلالة على جوارها الشرقي. غير أن المصطلحات الأنكلوسكسونيّة المستخدمة في الإدارة الإمبريالية البريطانية في القرن التاسع عشر، تطوّرت تدريجياً لتنتهي إلى طرد التسمية الشاعرية والصائبة على السواء، أيْ المشرق من المعجَم. وسرعان ما اسْتُعيض عن هذا المصطلح بآخر هو الشرق الأدنى أو الشرق الأوسط. ولكن، إن شئنا صِدق المقال، هل كان من الممكن في أية حال الاستمرار في إطلاق تسمية «المشرق» على مجتمعات بات ينظر إليها كمجتمعات تعاني الانحطاط الكامل، وتكابد الركود التام؟ بل قُلْ إنه كان يجدر بالشّق الآخر في هذه الثُّنائية، أن يكون نقيض الأول، أي أن يقال، في مقابل المشرق، «المَغيب» أو غياب الشمس المؤدي إلى الاستكانة والنوم. ولكنَّ في التسمية هذه ما كان يفاقم أكثر فأكثر المخاوف الأوروبية من الانحطاط المتربّص بقارة بلغت ذروة السَّطْوة التوسعية في القرن التاسع عشر.

الحاجة إلى عدو مرعب لدوام حياة الأسطورة

وهكذا كان لِلَفظ «الغرب» أن انطلق فأنجز مساره الخاطف السّاطع هذا: لفظ سحري، لفظ طَوْطَمِيّ، تجمهرت حوله «القبائل» الأوروبية المتنوعة. ومن المفترض بالمفهوم أن يجسّد اليوم على السواء القوة المنقطعة النَّظير، الحضارة والتقدّم، العلم الظافر والعقلانية، الحداثة، الفَرْدانِيَّة، الديموقراطية، دولة القانون وحقوق الإنسان، الإنسانوِيَّة، الكونية،النظام المستقرّ، مجتمع الأمم، الأمم المتحدة، غزو الفضاء،

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

تحرير المرأة، حقوق الطفولة، الحرية، الازدهار، المساواة في الفرص، الانتصار على كل من المرض والجوع، بل قُل، والى حدّ ما الفَقْر. ذاك هو الغرب الظَّافر، الغرب الفاتح الغازي، الغرب المُغَوْرِب. وما من لفظ أمكن له اكتساب هذا الكَمّ من الدَّلالات والإسنادات الرمزية والانفعالية القوية، التي كان لها أن اصْطُنِعت بوحي من التَّضاد، وبإملاء من التناقض مع المدلولات «الشرقية». فلكي يَقْوى الغرب على الوجود، لا بُدَّ له من شقيق غريم لدود، أو على الأقل خطير مثير للقلق، ينبغي له الاحتراس منه.

عرف الصينيون الثنائية الطِّباقِية المتمَثِّلة باليِيْن واليانغ (Yin & Yang). أما الأوروبيون، فلقد رفعوا بنيان رؤيتهم على التناقض بين هابيل وقايين، وهما الأخوان التوراتِيّان الأسطوريان؛ وهو تناقض تجسَّد في الثنائية الجوهرية، التي ادعت الثقافة الأوروبية اكتشافها بين الآريين والسَّامِيِّين في القرن التاسع عشر. غير أنها لا تلبث أن تندثِر خلال النصف الثاني من القرن العشرين، بزوال النظريات العِرقية الهِتْلِيْرِيَّة، التي قامت على هذا التَّضاد، يوم انهارت النّازيَّة. عندها أصبحت البَلْشَفِيَّة الروسية هي النقيض لشخصية الغرب وعبقريته، وبات الشرق، بوصفه نقيضاً للغرب، روسياً، مرتَقَباً امتداده حتى يصل إلى الشرق الأقصى الصيني، وذاك الهندي الصيني، عندما يُقْبِل أهل هذه البلاد على تبنّي الماركسية كثقافة سياسية. وما أن زال الاتحاد السوفياتي، بنهاية القرن المنصرم، حتى عادت الثقافة السياسية الغربية مسرعة على نحو مثير للعجب إلى التقاليد القروسطية القديمة، ثم تلك الاستعمارية، التي تُضْمِر العَدائية للديانة الإسلامية، بحيث لا ترى فيها إلّا عائقاً أساسياً يعترض سبيل تطور عبقريتها وقيمها، وتوسّعها في أصقاع العالم.

الخير والشر؛ المؤمن والمُلْحِد؛ الحضارة والهمجية؛ الديموقراطية والتوتاليتارية: يبدو أن عادة إدراك العالم على الوتر الثنائي، بات اليوم النَّمط السائد في التفكير؛ ولكنه يغترف جذوره القوية ، من بعضِ وجوه التنوع الماثل في الثقافات الأوروبية، كما من التناقضات التي تَخَبَّطَت فيها وأدَّت، وهو ما لنا عَوْد إليه، إلى حروب أوروبية داخلية لا نهاية لها. فإذا كان اليين واليانغ هما مبدآ الانسجام والتناغم في الصين، فإن النمط الثُّنائي المعتَمَد للنظر إلى العالم هو، بالنسبة إلى بعض الأوروبيين، مبدأ التناقض الخلّاق الذي يؤمّن تقدّم الحضارة والفكر البشري. ولقد

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

كان لكل من هيغل وماركس أن أسْهَما أكثر من غيرهما بكثير في فلسفة التاريخ هذه، التي لا تزال تُحيْي حتى حاضرنا، رؤية صدام الهويتين العِملاقتين المدعوَّتَيْن الشرق والغرب. إنهما جَبَّاران هائلا القوة والحجم، تماماً كما في الأساطير الإغريقية، وهما محكومان بالتواجه والتصادم بعضهما ببعض، إلى أن يستسلم واحدُهما للآخر الذي لا يلبث أن يجَرّده من سلاحه.

ولكن، ما هو هذا الشرق الذي كان للغرب أن ابتدعه ليضمن بناءَ أفضل لهويته على حطام وركام التنوع البشري العظيم والمدهش في أوروبا، وعلى الفيض الخلّاق، وعلى الغزارة والحيوية الفكرية التعددية التي عرفتها الشعوب الأوروبية منذ القرن الخامس عشر؟ لقد أصبح الشرق ضرورة يستحيل تفاديها أو تجاهلها في الخطاب الأسطوري الغربي، الذي أقبل عليها لكي يرتقي ببنيانه مكتسباً المصداقية، مما يسمح له الاستيلاء على النفوس والاستحواذ على العقول. وفي الواقع، لا وجود لغرب من دون شرق. ومن دون شرق، لا صدام للحضارات على الإطلاق، ولا تشنّجات ولا مخاوف، ولا انتشار عسكري، ولا نظام الأحلاف العسكرية بغرض الذّود عن «العالم الحرّ» وقِيمِه ضدَّ العدو المتربّص به. أما واقع الشرق وقوامه وحقيقته، فكلها أمور لا تلقى إلّا القليل من الأهمية، لأن المهم يكمن في ضرورة ابتداعه، هو الآخر، من موطِن الخيال. وقد يُسْتَشْعَر به تارة كشرق «أدنى» أو «أوسط»، وتارة كشرق ناءٍ بعيد، «أقصى»؛ واليوم، يبدو أنه وصل إلى قلب أوروبا، إلى تلك النقطة المركزية من الغرب، عبر تمدّد الأعداد الكبيرة من المغتربين المسلمين، التي بات من الصعوبة بمكان ضبطها.

ذلك أن أوروبا قارة مكشوفة تماماً وبشكل مباشر على آسيا والآسيويين الممتلئين غموضاً وتهديداً، والذين يشكّلون منابع للخوف، كما في بعض الأحيان للدَّهشة والإعجاب. وتخوم أوروبا، هو أولاً روسيا، ذلك الكيان الهَجيني، إذ لا هو أوروبي بالكامل، ولا هو آسيوي خالص، وقد ارتعدت له فرائِص أوروبا، التي يشكل منها جزءاً دون أن يكون فعلاً هكذا . وفي أية حال، تَعْمُد أصول الغربوية وقواعدها ومعاييرها إلى إقصائه؛ أو لنقل على الأقل أنَّ هذا ما فعلته حتى الآن. ولقد كان لكل من روسيا وفرنسا وألمانيا وإنكلترا كمّ من العلاقات المعقَّدَة، والحروب، والتأثيرات الفلسفية والثقافية والفنية المتبادلة. ولكنَّ روسيا تبقى اليوم خارج حدود الغَرْبَوِيَّة، فيما

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

تجد اليابان نفسها وقد أُدمجت سياسياً وعسكرياً فيها. أما موقع الانكشاف الآخر لأوروبا، فهو تركيا التي كانت فيما مضى قوة عسكرية عظمى في زمن المجد والعَظَمة اللذين ازْدَهت بهما السلطنة العثمانية مهدّدَةً القارة الأوروبية، ومحتَلّة أطرافها الشرقية؛ أما اليوم، فلقد اندمجت في التشكّل العسكري للغرب المتمثّل في منظمة دول حلف شمالي الأطلسي (الناتو)؛ غير أن اندماجها في السوق الأوروبية الموَحَّدة لا يزال مرفوضاً وممنوعاً عليها. وإن كانت روسيا في الماضي القريب ماركسية، فإنَّ تركيا، التي لم تكن يوماً كذلك، هي في المقابل إسلامية. واليوم، بعد أن زالت الأنظمة التوتاليتارية الماركسية الروسية والصّينية، فاندثرت في غَياهب التاريخ، فإنَّ الشرق، بوصفه نقيضاً للغرب، يجد له في الإسلام تجسيداً.

ولقد كان للكيانات الأسطورية الأخرى، التي ساعدت على اصطناع حدود الغرب المتحرّكة في فكر الأوروبيين - وأعني بها نَقَائِض الغرب - أن تنوّعت، طَبْقاً للمراحل الزمنية والمِزاجات المتعدّدة، والرؤى المختلفة عن العالم، التي هزّت تلك القارة-المنارة، ولكن أيضاً بمقتضى طبيعة اللحظة التاريخية التأسيسية التي وقع الاختيار عليها لِدَمْغ ولادة هوية الغرب العملاقة وتحديدها. ولقد سبق للإسلام أن لعب هذا الدور مرّات عِدَّة في مجرى التاريخ العائد لأوروبا[18]؛ إذ اسْتُشْعِر بمحمد كما لو كان المسيح الدَّجّال، يوم كانت الحضارة المسيحية لأوروبا تغطّي كل شعوبها، وتبُثّ الحياة في مؤسساتها السياسية والاجتماعية. ومن المؤكد أن المؤلّف الشهير الكوميديا الإلهية *(La Divine Comédie)*، للأديب الإيطالي الذائع الصيت دانتِه أليغياري (Dante Alighieri)، يُظْهر نبيَّ الإسلام في الحَبْكَة السَّردية بطريقة مفاجئة، إذ كان له فيها هيئة مغايرة للرسوم الكاريكاتورية الهَزْليَّة، المحقّرَة والمسْتفِزّة،

---

(18) من الممكن للقارئ العودة إلى كلود ليبوزو، في مؤلّفه الصادر بعنوان إمبراطورية الشّر في مواجهة الشيطان الأكبر: ثلاثة عشر قرناً من ثقافة الحرب بين الإسلام والغرب Claude Liouzu, *Empire du mal contre Grand Satan. Treize Siècles de culture de guerre entre l'islam et l'Occident*, Armand Colin, Paris, 2005).

ويحتوي هذا الكتاب على جَرْدة بالصور السلبية عن الإسلام، التي كان لاعتداءات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001، في الولايات المتحدة، أن أعادت إحياءها على نحو فيه الكثير من الحِدَّة والكثافة.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

التي نشرتها صحيفة دانماركية في خريف العام 2005، والتي لم تتأخر في استثارة الأهواء والانفعالات في الحيّز السياسي المضطرب الذي نعيش فيه.

ولكن ثَمَّة عوامل مُنَفّرة أخرى، خيالية أم واقعية، اضطلعت بوظائف ضمنت تقوية هوية الغرب وتوطيدها. فلنتذكر الخطاب الذي ينضَح تَعَصّباً عِرْقياً بشأن «الخطر الأصفر» المتجسّد في الشرق الأقصى كما شعر به الأوروبيون. ولقد كان لهذا الخطر أن فَعل عميقاً في المخيّلة الغربية، يوم كان الشرق الأوسط يبدو وكأنه لا يمثّل أي خطر، لأنه كان خاضعاً وقتذاك للقوة العسكرية، أو لأنَّ الخطر الذي كان يتوعَّد الغرب به، بدا أقل خطورة بكثير من الخطر المتمثل في اليابان أو الصّين. ومن جهته، لعب الخطر البَلْشَفي أو الإفساد والتخريب الشُّيوعيان دوراً كبيراً هما أيضاً في التأكيد على قِيم الغرب، كما على هويته طوال القرن العشرين. فالنّازيَّة رفعت من بنيانها معتمدة بشكل واسع على الهَوَس بهذا الخطر، وعلى ما كان يولّده في النفوس من هواجس. ولن يطول الأمر بالثقافة السياسية الأميركية حتى تضطلع بالأمر عينه، ولكن بأسلوب آخر، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

وللاقتناع بهذا الواقع، يكفينا أن نرمي نظرةً خاطفة على الأدب الشعبي الضخم الذي تشكّله الرواية الجاسوسية، لكي يتكشَّف لنا فيه اصطفاف الأفكار والصّيغ المبتذلة والمتكررة التي تُظهر كلا من «الصُّفْر»، و«السُّود»، والعرب، والصّينيين، والسّوفيات، والمجاهدين الجزائريين، والمقاتلين الفياتناميين، بصورة قبيحة منفّرة، تُضاف إلى غيرها من الشخصيات الروائية المعادية للغرب، والمحِبَّة المتَلهِفَة لسَفْك الدماء في نظر مثل هذه الروايات الرخيصة والبالية.

لعلَّه ينبغي البحث عن الطِّراز البَدْئي، أي عن الأنموذج- لأساس المثالي لهذا التعصّب العِرقي الفَجّ والمباشر في الوصف النَّمطي لليهوديّ في التقاليد المسيحية. فبعد أن كان أصله في اللاهوت المسيحي لحِقبة طويلة، نُقِلَت الصورة النمطية لليهودي، الكائن الغريب، الخطير، الفاسد والمفسِد، والمتمرّد على قِيَم المجتمع المسيحي وعقائده وقناعاته، لتُسْقَط في القرن التاسع عشر على الانقسام الكبير للعالم بين الآريين، وهم العِرق الرفيع النبيل، وبين السَّامِيّين، وهم العرق الدّوني الوضيع، الذي يجد له تجسيداً في اليهوديّ لدرجة يُجَاز معها أن يُكبَّد سوء المعاملة والمَهانة،

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

والاضطهاد، والعزل والتهميش، والقتل، بل وحتى الإبادة الجماعية في أوروبا بكل راحة ضمير.

واليوم تشهد خصائص اليهوديّ ـ أي مجموع صفاته الاجتماعية والنفسية والبيولوجية ـ إعادة تأهيل وإدماج في صلْب القِيم الغربية، وذلك بعد أن تعرضت الجماعات اليهودية الأوروبية لخطر الزوال التام، نتيجةً للإبادة العِرقية التي ارتُكِبَت في ظل العصر النّازي. ولكن يبدو بوضوح أنَّ العقيدة الإسلامية أصبحت اليوم هي التي تخلِفُ تلك الآنفة الذكر، في منزلة العامل القبيح والمنفّر، مُتِيْحةً بالتالي توطيد هوية الغرب.

لذلك نرى اليوم أن الشرق الذي يسمح للغرب بالوجود بوصفه تصوّراً خُرافياً، ما عاد الشرق السّلافي أو الشرق الأصفر، وإنما الشرق المسلم. وبالتالي، أصبح كائن الإسلام، وخلال عقود قليلة فقط، كِياناً حيّاً، مهدّداً، نقيضاً للغرب تماماً. وسرعان ما جعلت منه بعض الأدبيات الأكاديمية والصحافية الضخمة كائناً حيّاً، ذا طبيعة مخيفة، جباراً هائل القوة والحجم، يبحث هو أيضاً عن سبيل يجابه به الغرب، ويتصدّى له. فالصور التي تجمهرت في المخيّلة الغربية واستَقْطَبَتْها، أوجزت وكثّفَت سلسلة من الصّيغ والأفكار النمطية والمكررة على ابتذالها، تسمح لنا بأن نصنع منها قصة مصوَّرة كاريكاتورية الطابع وتهكُّمية الغرض: نساء خاضِعات مُسْتَعْبَدات؛ ميل إلى الإرهاب ولذّة في الدماء؛ غياب للقِيم الفردية؛ تعصّب ديني؛ كراهية للإنسان الغربي بشكله المسيحي أو اليهودي؛ جرائم شرف؛ ألبسة قَروسطية؛ لِحَى فيها من القُبْح ما ينفّر؛ نَحْر الأضاحي في البيوت؛ رَجْم المرأة الزّانية؛ بَتْر أيدي اللصوص؛ طغاة دمويون؛ ميْل أعمى لاقتناء أسلحة الدمار الشامل؛ احتجاز للرهائن؛ عمليات انتحارية؛ رفض للغَيْرِيَّة... وفي مواجهة كل هذا، يظهر الجبّار الغربي الهائل القوة والعظيم الحجم، هو الآخر مثل كائن جماعي، من لحم ودم لا محالة، ولكنه ديموقراطي النزعة، مؤمن بالفردانِيّة محترِم لها، حكيم بصير، حريص على التّقدم ورَغَد العيش، مُجِلٌّ لحقوق المرأة والأقليّات، محترَم لدين وهوية كل فرد أيّاً كان، وهو نجح في إقصاء العنف والأهواء الغُنْفِيَّة عن عَقْر داره.

وعلى ضوء ما تقدَّم، تجدنا وقد اسْتَحَلْنا إلى مشاهدين يتابعون مسرحية من النوع الرّديء، تقدّم لهم صراع كيانَيْن، في واحدهما كاريكاتورية وهزْلية بقدر ما في الآخر؛

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

إنهما الغرب والشرق، يجسّد كل واحد منهما حضارة من المفترض بها أن تكون مختلفة جذرياً عن حضارة الآخر. وكما الكيانات الماردة الأسطورية، فإنه يمكن لكل منهما توليد أعضاء عدَّة؛ ولكن الروح منهما ستبقى واحدة، والدماء عينها ستروي نسيج المجموع، والإرادة نفسها ستبثّ الحياة في الأطراف جميعها وتحرّكها.

«الأسطورة المؤَدْلَجة» أو الحاجة إلى الجذور ونقاوة الأصول

كيف نُلْزَم بالعيش، أكُنّا من الشرق أم من الغرب، مرغَمين مكرَهين في هذا المسرح الرديء النوع على الدوام، والفوّاح بروائح الوَحْل والدماء؟ ومنْ هما حقيقةً، هذان الكائنان من أصحاب الطبيعة المَسيخة الماردِيّة الشّاذة المُشار إليهما على التوالي بالغرب والإسلام: مارد جبّار حكيم بصير، وآخر مجنون؛ وهما يتعاركان، في الواقع كما في مخيِّلَة مجتمعاتنا التائهة؟ كيف أمكن لهذا العدد الوافر من الشعوب ذات اللغات المختلفة والثقافات المتنوعة، والتي تعيش على بُعد آلاف الكيلومترات عن بعضها بعضاً، أن تُجْمَع فتُمزَج في تصوّر تخيلِيّ واحد؟ في الواقع، سواء تعلّق الأمر بـ «الغربيين» أم بـ «الشّرقيين» المسلمين، فإنَّ هويتهم المتَخَيَّلَة مثيرة للعجب حقاً. ما الذي دفع بكل واحد منهما إذن إلى الانْسِكاب في قالب خاص به، أكان غربياً أم إسلامياً؟. إنَّ كل تاريخ الإنسانية يمتاز بذاك الغِنى الذي يُغْدِقه عليها تنوّع اللغات والثقافات، والبيئات الجغرافية، والموروثات التاريخية. وبالتالي كي نفهم هذا التناقض، لا بد لنا هنا من أن نَنكَبَّ على الأساطير، فنتفحَّص وظائفها وطرق إعدادها وتدبيرها.

إنَّ للأسطورة وظيفة جوهرية في أية حياة مجتمعية. فهي التي توجِد الرابط الاجتماعي وتعمل دونما انقطاع على تعزيزه وتَمْتينه. ولزمن طويل، بقيت دراسة الأساطير اختصاصاً موقوفاً على علماء الإثنولوجيا الأوروبيين، الذين اختاروا التَّرْحال والتَّجْوال بغرض اكتشاف القبائل «البدائية» التي تعيش بعيداً عن التيّارات الكبرى «للحضارة». كما أن الأسطورة شكّلت موضوع العديد من المباحث العلمية المستفيضة، ولا سيما عندما كان الأمر يتعلق بالأساطير الإغريقية، وبخاصة تلك المنسوبة إلى المجمَع الغنيّ للآلهة المختلفة في الثقافة الوثنية. وإذ خُسِف على امتداد قرون عدة

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

بفعل انتصار المسيحية، أُعيد هذا التراث الأسطوري الإغريقي إلى دائرة الضوء خلال النهضة في أوروبا، وأضحى فرعاً مهماً من فروع المعرفة والثقافة في القرن العشرين، حيث اشتهر به كل من جان بيار ڤرنان (Jean-Pierre Vernant)، وبيار ڤيدال-ناكيه (Pierre Vidal-Naquet)، ومارسيل دِيتِيَنْ[19] (Marcel Detienne) وغيرهم. فهم جميعاً سعوا إلى تبيان الطابع العقلاني للأساطير، ووصف «هندسة الفكر» الإغريقي، الذي اعتُبِر جزءاً مهمّاً من تراث «الغرب».

إنّنا مَدِيْنون أيضاً لجورج غوسْدورف (Georges Gusdorf) بدراسة ثاقِبة اضطلع بها حول الوظائف الأونطولوجية (أي المختصَّة بعلم الكائن Ontologie) للأسطورة، في الوعي الفردي للذات كما في الوعي الجَماعي. ففي مقدمة الطبعة الجديدة لمؤلَّفه الأسطورة والماورائيات (Mythe et Métaphysique)، الصادر في العام 1953، وقد حملت عنوان «استدراك» (Rétractation)، لا يتوانى غوسْدورف في إدانة مغالاة العقلانية العائدة حسب رأيه إلى غلو الفلسفة الكلاسيكية، وقد أطلق عليه وصف «انتصارية الإدراك الراشد»، الذي رسَّخه تحالف الفلسفة مع العلم منذ عهد نيوتن[20]

---

(19) انظر المراجع التالية: جان بيار ڤرنان، **الأسطورة والأفكار لدى الإغريق**؛ جان بيار ڤرنان وبيار ڤيدال-ناكيه، **الأسطورة والمآسي في بلاد الإغريق القديمة**؛ المجلد الثاني، جان بيار ڤرنان وبيار ڤيدال-ناكيه ومارسيل دِيتِيَنْ **من الأسطورة إلى العقل الرشيد**، جان بيار ڤرنان وبيار ڤيدال-ناكيه، **أوديب وأساطيره**؛ مارسيل دِيتِيَنْ، **اختراع الميثولوجيا**. وفيما يلي عناوين المؤلَّفات كما صدرت أصلاً باللغة الفرنسية:

Jean-Pierre Vernant, *Mythe et pensées chez les Grecs*, La Découverte/Poche, Paris, 1996; Jean-Pierre Vernant et Pierre Vidal-Naquet, *Mythe et tragédies en Grèce anciene-II*, La Découverte, Paris, 1986; Jean-Pierre Vernant et Pierre Vidal-Naquet, *Du mythe à la raison*, Seuil, Paris, 1990; Jean-Pierre Vernant et Pierre Vidal-Naquet, *Œdipe et ses mythes*, Complexe, Paris, 1994; Marcel Detienne, *L'Invention de la mythologie*, Gallimard, Paris, 1981.

(20) انظر جورج غوسدورف، **الأسطورة والماورائيات** Georges Gusdorf, *Mythe et Métaphysique*, Flammarion, Paris, 1984.

وانظر أيضاً للمؤلِّف نفسه **الثورة الغاليليّة**:

La Révolution galiléenne, 2 vol., Payot, Paris, 1969.

الذي سنأتي على ذكره لاحقاً.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

(Newton). وفي مقدِمة طبعة العام 1983 للمؤلَّف الآنف الذِكر (المُسْتَنْسَخَة في العام 1984)، يكتب جورج غوسْدورف قائلاً:

«تمثَّل الخطأ الذي اقترفته الفلسفة الكلاسيكية في إفرادها لمنطقة محدودة، لقشرة رقيقة من العقلانية الواعية والمنَظَّمة، طارِحَة باحتقار ما تبقَّى من الواقع الإنساني في صندوق قُمَامَة المعرفة. أما الحقل الأسطوري، فهو يحتَضن، وفي الإدراك الحسّي الأونطولوجي نفسه، نظام الأشياء والنظام القائم في الإنسان، اللذين تجمعهما وتتولاهما المقاصِد التي تسبغ على الواقع المعاش معنى وقيمة، دون ممنوعات أو مُتَبَقِيّات، مهتماً باللّباس والغِذاء والعلاقات العائلية والتدبير الداخلي للعالم المادي والأخلاقي والاجتماعي. ويُعنى الحقل الأسطوري بتفسير الهوية الإنسانية في ظل حماية من القِوى الخارِقة العليا، وذلك بفضل ما ينطوي عليه النظام الطَّقْسي من قدرة على إضفاء القداسة على الأشياء والأمور، يتوسَّلها للإشراف على حسن سير العالم. ومن شأن الأسطورة أن تجمع سوياً الحقيقة العليا المتعلقة بالإنسان وبالكون وبالله؛ ذلك أنَّ هذا التوجه، وخلافاً لما يصِرّ عليه أتباع المنهج الوضعي (أيْ الذي يقصُر عنايته على الظواهر والوقائع اليقينية)، هي أبعد ما تكون عن الموانِع التي تعوق الحقيقة ، بل إنها على العكس من ذلك مكوِّنات لحقيقة على المستوى الإنساني، وهي الوحيدة التي يسعنا أن نطمح إليها»[21].

إنَّ الحداثة الفلسفية والعقلانية التي أرسَتْها ثورة غليليو (Galilée)[*]، وقد أبدع جورج غوسْدورف في توصيفها في مؤلف آخر سنأتي على ذكره فيما بعد، أَوْحَت بأنَّ الفكر الأسطوري كان محكوماً بالزوال، وذلك بالتزامن مع وتيرة التقدم الذي كانت

---

(21) انظر المصدر عينه، ص 41.

(*) غليليو (1564-1642) (Galilée ou Galileo): أحد كبار علماء زمانه بالحساب والفيزياء والفلك. من مخترعاته ميزان الحرارة والمِنظار الفلكي. اكتشف حركة دوران الأرض حول الشمس؛ وتلك كانت الثورة التي أتى بها. (م)

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

«الحضارة» تحرزه. وفي مؤلَّف صدر له مؤخراً، يشرح مارسيل دِيتِيِنّ، وهو واحد من كبار المختصين بتكوين الأساطير وآلية عملها، الأساطير المؤدْلَجة التي أوجدتها «حرائق الغابة الكبرى التي أشعلتها "الأساطير" القومية»[22]، مُحْسِناً إظهار كيفية عمل الحاجة إلى الجذور، والحاجة أيضاً إلى النَّقاوة كما إلى رِفعة شأن ونُبْل الأصول العائدة لكل شعب، وكل مدينة، وكل أمة، وكل معتَقَد ديني. فانطلاقاً من الإيمان بـ«ولادة عذرية الطابع للجنس البشري ، وابتداءً من الأجداد النبلاء الإغريقيين القدامى في أثينا» إلى «عظمة الفرنسي المتأكد من جذوره العميقة ، يقيم هذا الأخِصّائي رابطاً في بناء «الأساطير المؤدْلَجة». وفي السياق نفسه، نراه يُظْهِر كيف أنَّ لمؤرّخ من مستوى فرنان بروديل (Fernand Braudel 1902 - 1985)، أن يُسْهِم في كتابه الأخير بعنوان هوية فرنسا *(L'Identité de la France)*، في بناء مُجَانَسَة تخَيُّلِيَّة لتاريخ فرنسا منذ فجر العالم يستحيل فصلها عن نظامه الطبيعي[23].

ونقع على الهيكلية الأسطورية عينها في توصيف عن الغرب يزوّدنا به مؤلَّف

---

(22) انظر مارسيل ديتين، **كيف تصبح مواطناً أصيلاً: من الآثيني الخالص إلى الفرنسي المتعمّق الجذور** (Marcel Detienne, *Comment être autochtone. Du pur Athénien au Français raciné*, Seuil, Paris, 2003) وفيه قوله: «كيف لي وأنا لا أزال أبقي على بطاقتي الهَلّينيّة، أن لا أتحسّس للإعلان المتكرر الذي تطلقه مواقد الغابة الكبيرة، وهي التي أشعلتها "الأساطير القومية"، كما كان يقال، بين أوروبا الأمس وأوروبا اليوم؟، أجل تبرز على شاشاتنا، أممٌ لا نظير لها وقد تدثّرت بفرادتها المزيَّفة؟ كيف؟ لماذا؟ كان لا بد من المزيد منها. ويعود بي الزمن إلى عشر سنوات خلت، لأجد نفسي حاملاً، كما بالمعمودِيّة، اسم "المُقارِن"، العضو في نادٍ صغير للغاية، حيث كنت أبقي على اقتناعي بأن الأساطير المؤدلجة التي عرفتها في طفولتي البعيدة، باردة ومملة كرثاء يُلقى على مسمعي ساعة الغذاء، سواء تعلّق الأمر بخُطب بارِس (Barrès) في "الأرض والأموات"، أو سواء تجلت هذه الأساطير المؤدلجة في الصور الصادرة عن رهبانِيّة دير القديس سولبيس (Saint-Sulpice) التي تُظهر الأرض - السيدة حاملة بِكْرَها الآثيني الصغير في ذراعيها».

(23) انظر مارسيل دِيتِيِنّ، **كيف تكون مواطناً أصيلاً** *Comment être autochtone*، ص 147. وتجدر الإشارة إلى أن مؤلَّف بروديل (Braudel) المذكور في المتن، والصادر في العام 1985، لا يبدو وكأنه يعكِس كل القريحة والأهلية اللتين ميّزتا على الدوام هذا المؤرخ الكبير، الذي لن يطول بنا الأمر حتى نعود إليه في الفصل الثاني من كتابنا هذا.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

صدر في أواخر القرن التاسع عشر وأعيد استنساخه في فرنسا خلال سبعينيات القرن العشرين:

«إنَّ الغرب هو إذن، وطِبْقاً لجوهره الأكثر صَمِيمِيَّة، جَمْعٌ من الرجال رسم منذ انطلاقته الأولى على الكرة الأرضية وفي كل مراحل حياته، حدوده المؤشرة لخصوصية وجوده وطرق عيشه وتفكيره، وذلك عبر هجراته، وتحركاته الاستيطانية، ونجاحاته كما إخفاقاته وانكساراته المشرّفة»[24].

وكما سنرى في اللّاحق من صفحات هذا الكتاب، فإنَّ القرن التاسع عشر الرومَنْسي هو الذي أعطى لخطاب الغرب عن نفسه تلك التَّلْوينة الأسطورية المتنامية القوة، بل الجامِحة الهاذية إن أمكننا القول، التي تتناقض بطريقة صارخة مع العقلانية والحكمة اللتين يزعمهما هذا الخطاب.

وفي مؤَلَّف رئيسي، أعطى مارك كريبون وصفاً مفيداً للغاية، وذلك انطلاقاً من تحليل عميق ومستفيض لما يطلِق عليه تسمية لقاء الفلسفة والأنثروبولوجيا، مع كل ما يطوّره هذا اللقاء من أحكام مُسْبَقَة لدى أفضل مفكّري أوروبا، بدءاً بلَيْبنيز (Leibniz) وانتهاءً بهِيردِر، مروراً بكانط، وموسوعيّي عصر التنوير، وفِختِه (Fichte) وهيغل وهومبولدت (Humboldt)، فيكتب صاحب هذا المؤلف قائلاً:

«في ثقافة كل شعب، ثمَّة حقل قد يحمل المطّلع عليه على الابتسام المستخف به، لولا لم يسمع فيه الصَّدى المزمجِر المدَوّي لكل الحروب الماضية، وأهوال القرن، واستشفاف كل تلك التي لم تأت بعد؛ وهذا الحقل هو مجموع الأحكام التي ينزلها كل امرئ بالآخرين، ولغتهم، وعاداتهم السّلوكية، وممارساتهم، وقناعاتهم الدينية. فلو تدَرّبنا، ولو قليلاً، على رسم صور شخصية تواجه بعضها بعضاً كما عبر الزجاج،

---

(24) انظر أنطوان شارل فون غوتنبرغ، الغرب قيد التشكيل: دراسة خلاصية ونقدية لركائز القرن العشرين Antoine Charles Von Guttenberg, *L'Occident en formation. Essai de synthèse et de critique des fondements du XX^e siècle*, Payot, Paris, 1973 [1894], p 437.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

مستعينين بالأدب أو بأية وثيقة أخرى، لحصلنا على صالة عرض لا تتغير لصور، في الغالب تكون سمتها المشتركة رواية البحث الشّاق الذي يضطلع به كل إنسان عن هويته، وذلك بالمواجهة مع كل الذين يحيطون به، أولئك الذين يكتشف فيهم، وبدرجات مختلفة ومتنوعة، سائر أجزاء الإنسانية»[25].

وسرعان ما يضيف كريبون قائلاً:

«إن الميزة الأولى التي تتجلّى في هذه الأحكام، إنما هي حِدَّتها المعتادة، التافهة المبتذلة، لدرجة ما عادت معها تثير الاستهجان، كلما التقيناها في انعطافة مقالة صحفية وسياسية لا تثير أبداً، عند القارئ، التساؤل النقدي عندما تتحدث بشكل عام عن الألمان، واليابانيين، والصينيين، والإيطاليين، والبلجيكيين وتلصق لهم النعوت كما لو كان ذلك بديهياً، وهي تتجلى أول ما تتجلى في غياب الرّفق بهم وحسن الالتفات إليهم»[26].

وإذ يحلّل المثال الكوزموبوليتاني العائد لكانط، الذي ما كان هو نفسه دون استعمال التوصيف الإثني السّهل لشوائب جماعية لبعض من الشعوب الأوروبية، بغرض التوصل إلى تجاوزها، يكتب كريبون:

«إنَّ التفكير بطريقة نقدية تتعارض تماماً مع التفكير في الانتماء الذاتي إلى أرض وتقليد وعائلة - ومما لا شك فيه إلى لغة أيضاً، وإن كانت تلك مسألة أخرى. بلْ أكثر من ذلك، فالتفكير النقدي إنَّما هو إنكار ودَحْض لأي نوع من الانتماء بإقصاء أي مرجعية شرعية لأية هوية كانت. فمن يختار بحرية التفكير بطريقة نقدية، لا يستطيع أن يبرر فكره بتلافي النقد أو التهرّب منه، واجداً له ملاذاً في حِمى هوية ما (شعب ما أو أمة ما، إلخ)؛ وإنَّما على العكس تماماً، إذ ينبغي عليه أن يرفض الحَتْمِيَّة ويجد له حماية منها في المبدأ الداعي إلى اعتماد أقصى درجة

---

(25) انظر جغرافيات الفكر Marc Crépon, *Les Géographies de l'esprit*, p.9.

(26) المصدر نفسه، ص 9.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

من قبول فكر الآخر، حيث وحدها المعايير الفكرية (كجدّية الحُجَج) تدخل في الحِسْبان»[27].

وفي مكان آخر، يضيف كريبون قائلاً:

«تقتضي الفلسفة النَّقْدية عدم وجود حدود للفكر، لا سيما وأنَّ نَقْد عصر التنوير، كما عمل على تنسيقها وتعميمها فلاسفةٌ ذوو نفوذ من أمثال هامانّ (Hamann) أو هِردير يشكّون في صوابية هذا المبدأ. ولهذه الفلسفة النقدية أيضاً مرمىً سياسي يقع في صلب مشروعها»[28].

بلورة الأفكار الطوباوية ونُظُم إدراك العالم المتناقضة

إن كان كريبون قد نجح في وُرود مَنابع الأفكار والصور النمطية، والأحكام المسبقة التي سيطرت على طريقة النظر إلى تنوّع الشعوب الأوروبية؛ وقام بتحليل تحرّكات «التقوقع والانفتاح الخلاصي» الخاصة بها في المختلف من أنظمة التفكّر بالعالم، فإنَّه من المفيد أن نكمل عمله هذا، ببحث نستقصي فيه منابع الأساطير الحديثة المتجسّدة في الخطابات المختلفة حول الغرب. وهذا ما سنسعى إليه ها هنا، إذ لم يَعُد الأمر ليتعلق اليوم بالازدواجية بين نَبالة المُثُل الإنسانوِيّة والكونية المنقولة عبر الثقافة الأوروبية من جهة، والممارسة الاستعمارية العنيفة المستندة إلى هذه المثل للقوى العظمى الأوروبية والتي أدينت مرات عديدة، من جهة أخرى[29]. بل إنَّ الخطاب هو نفسه الذي بات موضع اتّهام. ذلك أنه يجدّد بشدة عدة تقاليد فكرية أوروبية، سبق لها أن أدَّت بأوروبا إلى أعمال عُنْفِيَّة داخلية قَلَّ نظيرها، بفعل الرّؤى

---

(27) م.ن.، ص 171-172.

(28) م.ن.، ص 172.

(29) انظر بشكل خاص لويس سالامولينز، **مصائب عصر التنوير في ظل العقل: الفضيحة** Louis Sala-Molins, *Les Misères des Lumières Sous la Raison, l'outrage,* Robert Laffont, Paris, 1992؛ وانظر كذلك النقد الجذري الذي استهدف به عمانوئيل والِرْشتاين (Immanuel Wallerstein) **النزعة الأوروبية إلى الكونية، في كتابه ذي العنوان النزعة الأوروبية إلى الكونية: من الاستعمار إلى حق التدخّل** L'Universalisme européen. *De la colonisation au droit d'ingérence, Demopolis,* Paris, 2008.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

الوجودية والمتضادّة عن العالم التي أنتجتها تلك التقاليد. وكما سنرى في الفصل الخامس من هذا المؤلَّف، فإنّنا نشهد في القرن التاسع عشر الرّومَنْسي، بلورة لأفكارٍ طوباوية قوية، جابَت في طول أوروبا وعرضها. وحول هذه الأفكار، تشكّلت نُظُم فلسفية، ورؤى في العالم والتاريخ، ومشاعر صوفِيّة، وأهواء عاطفية مؤجّجة، متمحورة حول مفاهيم العِرق، والشعب، والأمة، والثقافة، والحضارة، والرسالة الكونية الشمولية، والدين والروحيّات.

وفي موازاة ذلك، نشهد ازدهار تطلّعات ثورية وقومية، وقد ارتبطت بالتّطلعات الاشتراكية ذات الطبيعة الرومنطيقية في غالب الأحيان، علّها تتيح للإنسانية الوقوع من جديد على السعادة المفقودة، تحت وطأة حركة التصنيع وتوسّع الرأسمالية. وفي داخل كل مجتمع أوروبي، أصبحت تناقضات الأفكار والرؤى في العالم لاذِعَة وفظّة أكثر فأكثر، موجِدةً توترات سياسية، اخترقت صفوف النُّخَب الفكرية. وكما سنرى بالتفصيل في الفصلَيْن السادس والسابع من هذا المؤلَّف، فلقد تَمَّ تصدير هذه التناقضات إلى روسيا منذ بداية القرن التاسع عشر، ثم إلى ما تبقى من العالم في القرن العشرين. وفي مستهل القرن الواحد والعشرين الذي نحن بصدده اليوم، ما زلنا نكابد خارج أوروبا، ما ولّدته تلك التناقضات من انتفاضات وارتدادات. وإذا ما عادت أوروبا تلك القارة الاِحْترابية، التي عرفت على امتداد قرون من الزمن الوافر من الحروب الداخلية، وهي نجحت في الوقت ذاته في اكتشاف العالم وغزوه، فإن الولايات المتحدة قد خَلَفَتْها اليوم في مسارها هذا .

ولذلك فالخطر أصبح داهماً، لا سيما وأن القيم المشتركة للإنسانية التي باتت اليوم مُعَوْلَمة بفعل سهولة الاتصالات والتبادلات، لم تظهر أبداً بهذه المحدودية وذاك التناقض والتنافر. وكل يوم، يبدو أكثر فأكثر التفاؤل بقدرات العقل البشري على تنظيم العالم في غير محلّه ، في ظل ارتفاع المشاكل المتفاقمة الجِدَّة، وهي مشاكل ذات طبيعة اقتصادية، واجتماعية، وبيئية، وجغراسية، كما وبمواجهة الميول إلى التعصّب الحضاري والخُطَب الهاذية: عن الغرب اليَهومسيحي المتناقض مع الإسلام والمتصَدّي له؛ عن الديموقراطية وحقوق الإنسان في مواجهة التوتاليتارية؛ عن عالم فلسفة عصر التنوير والعقلانية المجرَّدة، «المسلوبَة المعنى» في تنافره مع عالم التنزيل الديني، ومع تحسّس شاعرية العالم، كما ومع التصّوف. وفي الغرب كما في الشرق، تتضاعف

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

الخُطَب التي تقرع طبول الحرب وتدعو إلى سفك الدماء، وهي باتت تشغل كل الحيّز السياسي الإعلامي. أما الناس البسطاء الطيّبون، فإنهم يَقْبَعون حيَارى مرتبكين، ويلزمون الصمت، ولا يعرفون كيف يحكمون بعقلهم فينصرفون إلى التمتع بمجتمع الاستهلاك إن هم احتلوا المراكز المرموقة في الهرم الاجتماعي، أو إلى الانهماك في تأمين معيشتهم اليومية لو لم يحالفهم الحظ.

ومع ذلك، فإن قائد أكبر القِوى العظمى في العالم، ونعني به الرئيس جورج بوش الابن، لم يكفّ، وعلى امتداد السنوات الثماني لولايته، من التَّوق إلى الحرب، ومن تهديد دول أخرى غير تلك التي قام بغزوها واحتلالها في العام 2001 والعام 2003، على رأس أحلاف عسكرية، كان هو مَنْ أوْعَز وحفَّز على ابتداعها. ومن دون انقطاع، ظَلَّ يندّد بصوت جهوري بالخطر المتمثّل بولادة وحش جديد توتاليتاري، ألا وهو «الفاشية الإسلامية»، هذا المصطلح الذي استحدثه، معبّراً فيه عن التجسيد الجديد للعدو «الشّرقي». وفي كلام الرئيس الأميركي، يظهر أن هذا العدو يبتغي، كما الأعداء الآخرين الذين سبقوه، القضاء على القِيَم الديموقراطية العائدة للغرب وعلى حرّياته وعلى تقدّمه المتواصل. وهذا العدوّ يريد أن يفرِض على العالم شكلاً من الحكم المطلق الاستبدادي، ألا وهو الخلافة الإسلامية. إنه إذن عدو، مخَرّب وإرهابي ذاك الذي يهدّد في رؤية الرئيس الأميركي، سلام العالم، والذي ينبغي بالتالي أن تُشَنّ ضدّه حرب شاملة. ولذلك لا إمكانية للمساومة، ولا احتمال في المهادنة. ولا بُدَّ للحرب من أن تستمر إلى أن تنجح في إبادته العسكرية الكاملة، وفي الاقتلاع النهائي لعقائده المؤذية الشريرة من جذورها[30]. إن حِدَّة المقال هنا هي على قياس الإرضاء الذاتي النَّرجسي الذي يتَّصف به الخطاب المتناقَل في الغرب حول معجزات الحضارة، والتّقدم، والعقل الذي كان لهذا الكائن الأسطوري -أيْ الغرب - أن أنتجه في تاريخ العالم.

إنه إذن خطاب «غَرْبَوي» مرتكز على تقليد قوي راسخ، يقضي بأن يُنْظَر بإعجاب

---

(30) من شاء من القراء الاطلاع على تحليل لخُطَب جورج بوش الابن في ما يتعلّق بالخطر «الفاشي الإسلامي»، فليَعُد إلى مؤلَّفنا المسألة الدينية في القرن الواحد والعشرين، كما وإلى: Claude Liauzu, Empire du mal contre grand Satan. ولقد سبق الذكر إلى هذَيْن المرجعَيْن.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

كبير إلى هذا الكائن الأسطوري المتجسّد فيه كل الخصائص الثقافية والقومية والاجتماعية والإثنية والدينية، بوصفه كائناً جماعِياً يمثّل أفضل ما أنتجته الإنسانية، أي ما لم يستطع أي شعب آخر أو أية حضارة أخرى إنتاجه في الماضي، وما لن يتمكن أيّ منهما إنتاجه في المستقبل. إنَّ هذا الغرب الأسطوري المؤَدْلَج يحسَب نفسه الوريث الأكبر، بل قل الوريث الأوحد لتراث عظيم يحتوي على قِيَم إنسانية وإنجازات في جميع الميادين، تجعل منه وبما لا يقبل الجدل كائناً تستحيل مضاهاته في نظر مَنْ يتمسّكون به ويعيشونه بشكل عاطفي وانفعالي. ولذلك فإن الخطاب الغَرْبوي يعبِّر على الدوام عن خشيته من أن يَذْبُل جمال الغرب، ومن أن تضمحل قوته فيتلاشى، ومن أن تُنْهَب كنوزه على يد من يجسِّده ويقاتله أو يسخر منه. ومن شأن هذا الخطاب أيضاً أن يرفض وباحتقار وازدراء الانتقادات أو الاتهامات، وبخاصة عندما تأتي على لسان أناس غير غربيين. ذلك أن كل انتقاد يطال هذا الخطاب إنما يعتبر مثل الهجوم الموجَّه ضدَّ الحضارة التي يتولى الغرب قيادة التّقدم الإنساني منذ زمن الإغريق والرومان، والذي يحمل هو - أي هذا الخطاب - مشعلها. ومما لا شك فيه أنَّ ثمَّة حضارات أخرى قد برزت إلى الوجود لم تكن أقل أهمية وعظمة وحضوراً من حضارة الغرب، ولكنها زالت دون أن تترك مَنْ يَرِثها، ومنها الحضارات الفِرعونية والبابلية. وفي هذا المنظور، مَنْ بَقِيَت من تلك الحضارات على قيد الحياة، لم تتجدَّد أبداً من الداخل أسوَة بالغرب، وإنما هي على العكس، تقهقرت بشكل حتمي ولم يساعدها على الخروج من سُباتها العميق إلّا مواجهتها لإنجازات الغرب التي تهددتها، كما حصل في كل من الشرق الأقصى، حيث ما كان للصّين، واليابان، والهند - وهي كلها حضارات قديمة عظيمة -، أن تنهض وتنشط من جديد لولا الاتصال بثقافة الغرب ومشروعها الكوني.

يا لغرابة هذا الخطاب الذي يوصّف الغرب بهذه الطريقة! إنه يحبِسُك ويخنُقُك. وهو في المقابل، يقوم مقام «السحر الفَتّان»، واللغة السحرية الجديدة التي تغدق معنىً على الوجود، ليس فقط داخل الغرب، وإنما أيضاً خارجه، لدى كل الذين يُفْتَنون بقِيَمه، وعلومه ومعارفه، ونمط العيش فيه، ومؤسّساته. إن أسطورة الغرب، كما كل الأساطير، هي في الواقع مُنْتِج كبير للقِيم. فعلى المستوى الفلسفي كما على ذاك السياسي، نستطيع حتى أن نقول إن وظيفة الغرب الوحيدة، إنما هي إنتاج القِيَم التي

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

يحاول اليوم أكثر من الأمس، أن يحصر العالم فيها، حتى ولو كان عليه استخدام السلاح إن دَعَت الحاجة. وهنا يتجاهل الفكر الغربي تماماً كون هذه القيم قد انطوت، في تاريخ أوروبا، على التناقض والتنافر، وكونها قد أطلقت العِنان للأعمال العنفية الأكثر تطرفاً ومغالاةً حتى في عَقْر دارها، كما يتجاهل كون هذه القِيَم المُسْقَطَة والمنتشرة على مستوى العالم، استمرت في إنتاج الحروب، وتوليد العنف. فالمهم هنا إنما هو فرض تلك القِيم على الإنسانية، وذلك لما فيه خيرها وصلاحها، تماماً كما حصل في الأمس إبّان حِقبة الاستعمار، والحروب الدينية، والحروب القومية المستَتْبَعَة بالحربين العالميتين، ثم حروب إزالة الاستعمار، وكذلك الحرب التي ادّعت صَدَّ أعمال التخريب الشيوعية. وذلك تماماً كما يحصل اليوم، في زمن الحرب الرافعة لعلم مكافحة الإرهاب الذي أنتجته «الفاشية الإسلامية» حسب رؤية الرئيس جورج بوش الابن.

وعلى كل حال، يؤكّد الخطاب الغَرْبَوِيّ بشكل متواصل، على القِيم الخاصة بالغرب، وهو يرغب في أن يستفيد منها العالم، هذا العالم الذي تسميه لغة الغرب «المجتمع الدولي»، وهو التعبير المفضّل لديه.

اعتراضات غربية على الخطاب الغَرْبَوي

ومع ذلك، لم يعد بإمكان الخطاب أن يكون هنا إجماعياً. إذ نجد المتشدِّدين المؤكّدين على ولائهم لرِفعة قِيم الغرب وتفوّقها، وهي على التوالي: الديموقراطية، والفردانِيّة، وتفوّق العقل، وسيادة السّوق، والتبادل الحرّ، وهم مقتنعون بأنَّ السلام العالمي لن يتحقق إلّا بسيطرة هذه القِيم على مجمل كوكبنا الأرضي. وفي مقابل هؤلاء، نجد النِسْبَوِيّين (أيْ الذين يرون أنَّ القيَم والعادات والتقاليد تتعادل في ما بينها، وبالتالي هي "نسبية")، الذين هم أيضاً من مؤيّدي هذه القيم، ولكنهم مع ذلك يطالبون بأن تلقى الأنظمة القِيَميّة الأخرى الاعتراف والاحترام.

ويتَحَذَّر الأوائل من الفكر الهيغلي-الماركسي، حتى ولو طالوا التراث الماركسي بالقَدْح والذَّم، فاتّهموه بكل الشرور والآفات. وهم أيضاً يتهمون كلّاً من فلسفة التنوير والثورة الفرنسية بأنهما أفسدتا عبقرية الغرب، وذلك باختلاقِهما الطُّوباويات التي ولّدت المارد التوتاليتاري بجميع أنواعه. أما الأواخر، فهم أكثر استكانة، وأقل نزعة

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

إلى العَوْلَمَوِيَّة (أيْ ضرورة عولمة القيَم الغربية)، رافضين الانضمام إلى مَنْ يناصرون عَوْلَمَةً قوية مفروضةً بالنهج النيوليبرالي على ما تبقّى من العالم؛ ذلك أنهم يعتبرون أنَّ للحضارة الغربية خصائصها التي ليست قابلة لأن تزرع في كل أنحاء العالم. على الأرجح، يبدو الغرب، في نظرهم، متفوقاً بتقنيته وعلومه، غير أنَّ الحضارات الأخرى ونُظُمها القِيَمِيَّة يجب أن تحظى بالاحترام نفسه. وبالتالي، فما من سبب في رأيهم يجيز فرض النظام القِيَمي الغربي على حضارات أخرى في العالم، وذلك على نقيض الموقف الذي يبرر دور الغرب كشرطي العالم باسم سموّ قيمه. وبهذا، يصبح «النِسْبَويون» أكثر حبّاً للسلام وسعياً إليه، وأكثر انتصاراً لتعددية الأقطاب في إدارة شؤون العالم، وأكثر انفتاحاً على الشعوب والحضارات الأخرى. أمَّا «المتشدّدون في ضرورة فرض العولَمة، فهم أكثر ميلاً إلى تأييد اللجوء إلى القوة، وأنصار نظام دولي أحادي القطب، لا يكترثون بمبادئ القانون الدولي، وبخاصة منه أحكام الحرب والسّلم، وقد تطلّب إرساؤها العسير جهوداً بُذِلَت طوال القرون الأربعة الأخيرة.

فهل يكون الأوروبيون المتميّزون بحكمتهم القديمة محبّين للسلام، ونِسْبَوِيين بينما يكون الأميركيون متحمّسين لاستعمال القوة أحادية التصرّف؟ هذا ما يفكر به بعضهم، ولكن المسألة كما سنرى هي أكثر تعقيداً بكثير.

ومع ذلك، يغيب عن بال كل من الفريقيْن الواقع الجوهري للحداثة الذي يفيد بأنّه ما من مجتمع بقي على الحال التي كان عليها قبل إقدام أوروبا على غزو العالم؛ وما من مجتمع يتمكّن من العودة إلى الوضع السابق للحداثة الذي كان يتواجد فيه قبل أن يُخْضَع لتأثير الواحدة أو الأخرى من الثقافات الأوروبية التي مَسَّتْه. وما من مجتمع هو ذاك الكائن المقفل الذي كان عليه في الغابر من أيامه، إذ بات كل مجتمع يحمل في طيّاته جزءاً من الأساطير الغربية عن تاريخ العالم والإنسانية، وعن حرب القِيَم السياسية التي أنْجَبَتها الثقافات الأوروبية المختلفة، وصدَّرتْها إلى كل بقعة من الكرة الأرضية. عندما تقوم هذه المجتمعات بأمثلة ماضيها، فإنّها تطوّر تخيُّلات ذات طبيعة أسطورية حول تاريخها الخاص، متّبعَة الطرق عينها أو طرقاً شبيهة بتلك التي عملت الثقافات الأوروبية المختلفة هي نفسها على تعميمها في العالم. فمن الاضطرابات المريعة التي انتفض بها المجتمع الروسي إلى الثورة الصّينيّة، والعَسْكَرة اليابانية، والتوتّرات العنيفة المصحوبة بالارتدادات التي عرفها الشرق الأوسط، وعمليات الإبادة

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

الجماعية في كل من كامبوديا ورواندا، والمجازر الشنيعة الفظيعة التي دَمّغت تاريخ لبنان الحديث، والتفكّك الدموي ليوغوسلافيا، وآلام الفِلسطينيين التي لا تعرف لها نهاية، والاعتداءات الإرهابية التي تتولاها جماعات عَدَمِيَّة متنوعة ترفع راية الإسلام وتدّعي التَّدَيّن به، مروراً بالنّازيَّة والمحْرَقَة اليهودية، يسعنا أن نتبيّن في كل مكان نزاع القِيَم التي ارْتُقِي بها إلى مرتبة الأساطير الخطيرة والمفسدة ، تتوغل في كل الثقافات وكل المجتمعات وقد اتّخذت لها ألواناً وألفاظاً مختلفة، تتجسّد في بعض الأحيان في الأعمال العنفية المختلفة حسب الأوضاع المحلّية أو المناطقية أو الإقليمية.

وثَمَّة خطاب ثالث يأتينا من الغرب، ذاك الذي يغضُّ من شأن نظام القيم المَرْسُوَّة ويحقّر المؤسّسات القائمة. إنه الخطاب الغربي المعادي للغربوية. والمقدمات المنطقية لهذا الخطاب تكمن على الدوام في الوجود المحسوس فعلاً للكائن الأسطوري الذي هو الغرب، والمتجسّد في إنسان غربي *(homo occidentalis)* عدواني تهجُّمي، سالب ناهب للكرة الأرضية، لا يجد له اهتماماً ولا مصلحة إلّا في الكَسْب الذي يضمنه له نظام رأسمالي مجرّد من الروح. إنه فعلاً خطاب غربي، ولكنه يتفرَّد بنزعته المعادية للغَرْبوية. وهو في أية حال، يُدين صراحةً الرغبة في «فرض الغَرْبوية على العالم» والعمل على تحقيقها، وهذا ما يدفع بالإنسانية إلى هلاكها[31]. وليس هذا الخطاب بالجديد، ولكنه تكيَّف مع المشاكل المستجدة في العالم اليوم، وبخاصة منها الأضرار التي تطال البيئة.

في الماضي، كان هذا الخطاب ينهل من موردٍ رومنسية تعبّرعن الحزن وخيبة الأمل، فزالت أوهامها، وراحت تبحث عن عالم الدين الصوفي والسِّحري، فيما اندفع الفاعلون فيها ناحية الشرق المسلم أو البوذي أو الهندوسي، يبحثون فيه عن «حكمة» أضاعها الغرب الذي أضحى مادياً وتقنيّاً وملحداً. وعلى هذا الموقف الفكري، تقوم أعمال رينيه غينون (René Guénon) (1886 - 1951)، العالم

(31) ثمة أدبيات مهمة في هذا المجال، منها مؤلّفات سيرج لاتوش (Serge Latouche) التي تشرح الموضوع المذكور شرحاً جيداً مرتكزاً على الوافر من الدلائل والأمثلة، انظر بشكل خاص تغريب العالم: *L'Occidentalisation du monde*, La Découverte, Paris, 1989.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

بالرياضيات والفيلسوف والمتصوّف، مقام أفضل الشواهد[32]. ففي كل مؤلّفاته ينبري غينون مُدِيناً أوهام الحضارة المادية الغربية، تلك الأوهام التي ينتجها كل من تطوّر العلم وأيديولوجية التقدم. وهو فيها يعبّر عن الاشتياق الكئيب والقوي، الذي تتّصِف به الأنظمة المجتمعية الكُلّية الطابع (أيْ التي تنظّم كل تفاصيل الحياة اليومية للإنسان ولا تفصل بين حياته الخاصة وحياته العامة) القائمة على التّوق الصوفي والبحث عن التناغم الكوني، اللذين نجحت في تحقيقهما كل من حكمة وأديان الشرق الأقصى ومسيحية القرون الوسطى والصُّوفِيَّة الإسلامية - التي انتهى غينون إلى اعتناقها، فيكتب قائلاً:

«يتحدث بعضهم اليوم عن "الدفاع عن الغرب"، وهو بالفعل ما يثير الغرابة لفرادته، ذلك أنَّ [...] هذا الأخير هو الذي يهدّد باكتساح كل شيء وبجَرّ الإنسانية جمعاء إلى الدخول في زوبعة نشاطه الفوضوي. [...] والحقيقة هي أنَّ الغرب هو الذي يحتاج لمن يدافع عنه، ولكن فقط ضِدَّ نفسه، وضِدَّ نزعاته الخاصة التي، إذا ما دُفِع بها إلى أقصاها، لأدّت به، على نحو لا يمكن تجنّبه إلى الهلاك والدمار فالاندثار»[33].

ويتّخذ هذا الخطاب له اليوم لهجة أكثر حِدَّة، وصيغة رؤيوية تُنْذِر بنهاية الكون:

---

(32) انظر على سبيل المثال المراجع التالية: رينيه غينون، الشرق والغرب؛ مقدمة عامة إلى دراسة العقائد الهندوسية؛ أزمة العالم الحديث؛ الماورائية الشرقية؛ لمحة في الباطنية الإسلامية والطّاوية؛ كما يسعنا أن نعود إلى المؤلّف الجماعي الذي خُصّص لرينيه غينون وهو بإدارة يار-ماري سيغو وبعنوان رينيه غينون، زمن النضوج (ويتضمّن هذا الكتاب فهرساً دقيقاً بالمراجع والمصادر غير أنه يُغفل في أغلب الأحيان ذكر دار النشر التي صدرت المؤلّفات منها)؛ وفيما يلي عناوين الكتب المذكورة أعلاه كما صدرت أصلاً باللغة الفرنسية:

René Guénon, *Orient et Occident*, Éditions de La Maisnie, Paris, 1924; *Introduction générale à l'étude des doctrines hindoues*, Paris, 1921; *La Crise du monde moderne*, Gallimard, Paris, 1994 [1924]; *La Métaphysique orientale*, Éditions traditionnelles, Paris, 1939; *Aperçu sur l'ésotérisme islamique et le taoïsme*, Gallimard, Paris, 1973 [1947]; Pierre-Marie Sigaud (dir.), *René Guénon, L'Âge d'Homme*, Lausanne, 1984.

(33) انظر René Guénon, *La Crise du monde moderne*, p. 60.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

ذلك أن فرض الغربوية على العالم من طريق الغزو والاحتلال والنّهب والسّلب والرأسمالية المطلَقَة العِنان، يتسبَّب باستئصال للجذور على مستوى الكرة الأرضية، إلى درجة أنها تلغي وجود العقل. ولقد حاول هذا المسعى التغريبي عبثاً أن يَمْهُر نفسه بتسمية أكثر حِيادِيَّة، ولكن ليس أقل اعتداداً، وهي «العولمة» التي ليست إلّا آلة لاستئصال جذور مئات الملايين من البشر، ولإزالة مُزْدَرَعَات الريفيين، أي ما يعادل ثلثَي الإنسانية خلال المئة سنة الأخيرة، ولتدمير الموارد غير القابلة للتجديد وذات الوجود الضروري لضمان التوازن البيئي في كوكبنا الأرضي.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الخطاب النَّابض تمرداً، إنَّما هو أوروبي أكثر منه أميركي. زِدْ على ذلك أنَّه وريث الخطاب الإنسانويّ والمعادي للاستعمار الذي أنتجته أوروبا بالتزامن مع غزوها واحتلالها للعالم في القرن التاسع عشر، وعلى الرغم من الإخفاق الذي خبِرَته قبل بضعة قرون أثناء الحروب الصليبية، ذلك الغزو الذي لم يسمح باستعادة الهيمنة على المَشْرق حيث عاش السيد المسيح وتلامذته الأبرار المبشّرون. هذا مع العلم أنَّ أوروبا ما بعد انهيار الامبراطورية الرومانية قد بنت مؤسساتها على الديانة المسيحية التي أصبحت هي تضع إيقاع الساعات والأيام كما عدَّلت من نظام تقويم الزمن والأعياد وحوَّلت الطقوس الوثنية وأدمجتها في طقوس دينية جديدة وفي إنواع الفنون المستوحاة من المقدس الجديد[34].

المعادلة الأسطورية: أوروبا = الحداثة = الغرب = مستقبل العالم

ما الذي حصل إذن في هذه القارة الأوروبية، فقلب فِعْلياً أوضاع الإنسانية وغيّر وجهها، متسَبِّباً في كل مكان بالتصدّعات والانشقاقات والاضطرابات والانتفاضات؟ ما هي طبيعة تلك «الأعجوبة» التي ينبري بعضهم في أوروبا نفسها فيُخْزِيها ويلعنها؟

---

(34) وفي هذا الصدد، يسعنا الرجوع إلى: Jean Seznec, *La Survivance des dieux antiques*, Flammarion, Paris, 1993.

ويظهر هذا المؤلَّف الآثار الوثنية في المجالات الأكثر تنوعاً، وبخاصة منها الفني الديني.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

أيّة أعجوبة هي تلك التي تدفع إلى ظهور كلمة «سحرية» أخرى، تدّعي الإحاطة بكل تلك الاضطرابات أيْ كلمة «الحداثة»؟ «أوروبا = الحداثة = الغرب = مستقبل العالم». تلك هي المعادلة، ملحمِيَّة كانت أم مأساوية، التي تشغل العالم برمّته منذ ما يقارب القرنَيْن من الزمن. ذلك أن الحداثة هي أوروبا، وأوروبا هي الحداثة، بينما أصبح فيه مفهوم الغرب مِحْور ارتكاز هذه المعادلة. أضِف إلى ذلك أن هذه الأخيرة تنزع أكثر فأكثر إلى إزالة وجود تعدّدية الثقافات والرؤى عن العالم، أكانت فلسفية أم تاريخية، التي كان لأوروبا أن أنتجتها. إن الغرب وَليد أوروبا، ولكنه يصبح أيضاً والدها الحامي لها، فيما الحداثة هي الروح القُدُس التي تنضح بالعالم. إنَّ في الأمر غامِضة أكثر عمقاً من السّرِ الخَفِيّ الكامِن في الثالوث المسيحي المقدس المَهيب. إله بثلاثة أشخاص (الأب والابن والروح القدس)، مع ما رافق هذا البناء اللاهوتي من الحروب المذهبية التي جرّت معارك الأفكار الرئيسة ورمت بذور الشّقاق وفَرّقت شَمل أبناء الدين الواحد.

كثيرة هي المقارنات التي يُستطاع إليها سبيلاً هنا بين تلك النزاعات اللّاهوتية بشأن طبيعة الله الواحد الأحَد المتجسّد في أشخاص ثلاثة، وبشأن العلاقات القائمة بين كل واحد من عناصر الثالوث بالآخر من جهة، وبين الخُطَب المختلفة بشأن طبيعة الغرب وطبيعة أوروبا والحداثة التي بَثّتْها في العالم، من جهة أخرى. فإنْ كان من عقيدة قطعيّة مفهومَة نسبياً حول الماهيّة المفترضة للغرب وللمسارالأوروبي الصّاعق الذي فتح الباب لـ «خلاص» العالم من "ظلمات التخلُّف"، فإنَّ الحداثة في المقابل، كما الروح القُدُس تماماً، بقيَت على غموضها. ومن ناحية أخرى، ما كاد العالم غير الأوروبي يبدأ بقَبول وبتَطْويع حداثة أوروبا المنتصرة بما يضمن له التكيّف معها، حتى أعلنت الثقافة الأوروبية دخولها في مرحلة ما بعد الحداثة، الهادفة إلى تغيير وجه العالم من جديد.

فمن أين وُلِدَ هذا الخطاب المرتكز على الوجود التَّخيُّلي لهذا الكائن الجماعي المسمّى بالغرب؟ وما هي تلك المرآة السحرية والفَتّانة التي يتمَرّى فيها الغربيون بلا كلل ولا ملل؟ لقد تنوّعت المؤلّفات التي حلّلت وظائف الانقسام الجذري الذي كان لأسطورة الغرب أن أرْسَتْه حَيَال الغَيْرِيّة الشرقية المطلقة تجاه الغرب. ومن أشهرها،

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

كان كتاب إدوار سعيد بعنوان الاستشراق *(L'Orientalisme)*، الذي أدان بحِدَّة الوظيفة المحقّرة التي اضطلع بها كل الأدب الأوروبي المتعلّق بالشرق[35].

لَقِيَ فيما بعد الطرح القائل بالتفوّق الجيني العائد للغرب طعن المؤرّخ وعالم الأنثروبولوجيا الإنكليزي جاك غودي (Jack Goody)، الذي يُظهِر أن الهيكليّات الاجتماعية-الاقتصادية لأوروبا لا تبدأ فعلاً بالتميّز عن تلك الخاصة بالشرق الإسلامي إلّا في القرن الثامن عشر[36]. وبالتالي فإنّ البُنى الذهنية لا تتميّز بالغَيْرِيَّة الجذرية التي يريد بعضهم أن ينسُبها إليها، إذْ إنَّ تلك الغيرية المتخيّلة هي نتيجة ضرورات بناء أسطورة الهوية العملاقة المُسَمَّاة «الغرب». وفي مؤلَّفه الرئيس، بعنوان الحضارة المادية، اقتصاد ورأسمالية Civilisation matérielle, économie et capitalisme، يؤكّد فرنان بروديل هو أيضاً، وفيما يتعلّق بالعالم المتوسطي، على أنَّ التَّشقّق في مستويات المعيشة والحضارة لا يطرأ إلّا في القرن الثامن عشر[37].

ومما لا شك فيه أنَّ الخطاب الغربوي اليوم يعترف بهذه الوَصْمة التي لا يمكن مَحْوها من الجمال الأسطوري للغرب، وهي وَصْمة شكَّلتها موجة القسوة الوحشية المنقطعة النظير التي ضربت أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية وجرَّت الإبادة الجماعية على اليهود الأوروبيين. ولكن مع ذلك، فلقد تَمَّ غَسْل هذه الوصمة عن

---

(35) انظر إدوارد سعيد، الاستشراق: الشرق كما ابتدعه الغرب. Edward Said, *L'Orientalisme. L'Orient créé par L'Occident*, Seuil, Paris, 1981.

وانظر أيضاً المراجع التالية: تيري هانش، الشرق الخيالي: الرؤية السياسية الغربية للشرق المتوسطية؛ لوسيت فالنسي، البندقية والباب العالي: ولادة الطّاغية؛ وجورج قرم، شرق غرب: الشرخ الأسطوري، المذكور سابقاً، وفيما يلي عناوين الكتب كما صدرت باللغة الفرنسية:

Thierry Hentch, *L'Oreint imaginaire. La vision politique occidentale de l'Est méditerranéen*, Minuit, Paris, 1989; Lucette Valensi, *Venise et la Sublime Porte. La naissance du despote*, Hachette, Paris, 1987; et Georges Corm, *Orient-Occident. La fracture imaginaire*, op.cit.

(36) انظر جاك غودي، الشرق في الغرب. Jack Goody, *L'Orient en Occident*, Seuil, Paris, 1999.

(37) انظر فرنان بروديل، الحضارة المادية، اقتصاد ورأسمالية (القرن الخامس عشر - القرن الثامن عشر) Fernand Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme* (XV^e-XVIIIe siècle), 3 vol., Armand Colin, Paris, 1979.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com
Uploaded By: Linda Hamdan

طريق الاعتراف بهذا الفعل الشّنيع، وكذلك عن طريق رعاية ذكراه، ليس فقط على المستوى الأوروبي وإنما أيضاً على مستوى العالم، بما أن الأمم المتحدة أسّست في العام 2005 «اليوم العالمي لاستذكار ضحايا المحرقة». وبهذا، يصبح هذا اليوم «نقطة مرجَعية عالمية للذكرى»، كما «أنموذجاً يصلح لتحديد ماهية الخير والشر»[38]. وفي الوقت عينه، يَعزُو الخطاب الغربوي للشخصية الأخرى في الثنائية، أي الشرق، النية القاتمة على ارتكاب فظائع موازية تستهدف دولة إسرائيل ومواطنيها الناجين من المحرقة. فكل مقاومة تتصدّى للاحتلالات الإسرائيلية توصَف والحالة هذه بـ «الإرهابية» وتُنسَب إلى عدوانية «الفاشية الإسلامية» التي عرّفها الخطاب الأميركي الرسمي. فالغرب، الذي خرج كبيراً بنظره من فعل ندامته يجد له بهذه الندامة رسالةً حضارية جديدة، تقتضي منه منْع شريكه في الهوية النقيضة من ارتكاب الشرور نفسها، وبالتالي من وضع، هو الآخر، الحضارة ومسيرة الإنسانية نحو التقدّم والسلام في دائرة الخطر؛ وهو ما سنعود إليه بالتفصيل في الفصلَيْن السابع والثامن من هذا الكتاب.

ويرتكز الخطاب الغَرْبوي دائماً على تطوّرالأنموذج الإشكالي لعبقريته الخارقة، تِبْعاً للظروف التاريخية المتغيّرة. وهو يضع محدّدات هذا الأنموذَج لكل من الكيانَيْن الانتمائيين (أي المتعلقين بالهوية) النقيضَين. كما يتعارض على الدوام رسم صورته الذاتية مع رسمه لصورة الكيان الهُوِيَّتي النقيض. زِد على ذلك أنَّ كل سِماتِه السَّلبية الخاصة به تُمْحى لتُسْتَخدم في رسم صورة الشرق. واختصار القول إنَّ وجه الغرب خاضع بلا انقطاع للتَّبْييض، في حين يُعْمَل على إسْباغ السّواد على وجه الشرق.

هكذا يتِم بناء الخطاب الغربوي الراهن، وهو ما لنا عَوْد إليه لاحقاً. غير أن الحال لم تكن تلك على الدوام؛ ذلك أنَّ للنرجسِيّة التي نسعى إلى توصيفها ها هنا تاريخاً معقّداً وجذوراً متداخلة كثيفة. ويكمن أحد مفاتيح تفسير هذا التاريخ في الصِّلة بين أوروبا والولايات المتحدة. ذلك أنه من المستحيل تصوّر الكائن الهويتي المُسَمَّى «غرباً» في ظل غياب أوروبا. والولايات المتحدة، التي هي نِتاج تاريخ أوروبا، كما

---

(38) انظر أولريتش بيك، السلطة والسلطة المضادة في زمن العولمة Ulrich Beck, *Pouvoir et contre-pouvoir à l'heure de la mondialisation*, Flammarion, Paris, 2003.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

سبق لنا وذكرنا، لا تستطيع وحدها أن تشكّل الغرب. زِد على ذلك، وهو ما سنراه لاحقاً، أنَّ لعبة المَرايا - وهي لعبة منحرفة مفسدة - قد مورِست داخل أوروبا عينها، بقدر ما مورِست حَيَال العالم غير الأوروبي، بين أوروبا البحرية واللاتينية، الكلاسيكية والإنسانوية، إضافة إلى تلك الفرنكو-إنكليزية والليبرالية، وبين أوروبا القارِيّة الجِرمانِيّة، ثم الروسية "البربرية"، والغريبة العادات والرومنطيقية والمتمرّدة. ولقد كان للمؤرِّخ البلجيكي جاك بيرِيّن (Jacques Pirenne) أن أبرز التباين بين هاتين «الأوروبَّتَيْن»، وهو يرى فيه مفتاحاً أساسياً لشرح تاريخ القارة الممزّقة بين الانفتاح الليبرالي لأوروبا البحرية، والسُّلْطَوِيَّة الانغلاقِيَّة لأوروبا القارّية، فيكتب قائلاً:

«وهكذا يبدو أنه كلما دَنَوْنا من البحر، كلما كَبُر تأثير الليبرالية وتعمّق فعْلها، بوصفها المولِّد للقوة العظيمة وللثراء. أما إنْ اندفعنا في عمق القارة، فإننا على العكس نقع على السلطوية التي نجدها في أساس كل التطوّر السياسي والاجتماعي، الملَفَّف في أوروبا الوسطى بفعل المعارضة الإقطاعية السَّائدة، إنَّما المهيمن في روسيا، حيث ما من قوة تقدِر على تعطيل هيمنتها المتنامية»[39].

الفكرة الأوروبية: أسطورة أم واقع؟

بداءَةً، كانت أوروبا نقطة ارتكاز العالم، وهي التي أخرجته من غَفْلَته، وأوجدت ديناميّته، وجمعت ما كان مفرَّقاً مشتتاً وذلك بفضل شبكة ضخمة من وسائل النقل والتبادلات الاقتصادية والانتشارات العسكرية في كل القارات، وهي شبكة وضِعت مداميكها بدءاً من العام 1492 - سنة رحلة كريستوف كولومبوس (Christophe Colomb) الاستكشافية. إن هذه المركزية الأوروبية، لن يُعاد النظر فيها في أعقاب الحرب العالمية الثانية عندما انهارت الإمبراطوريات الاستعمارية. وهكذا مرَّت أربعة قرون ونصف القرن من التاريخ الصاخِب والغنيّ، ولكن أيضاً البالغ القسوة بشكل خاص، تمّ فيه صهر المواد التي ستساعد على رسم الغرب الأسطوري، الأسطورة

(39) انظر جاك بيرِيّن، التيارات الكبرى للتاريخ الكوني Jacques, Pirenne, *Les Grands courants de l'histoire universelle*, Editions de la Baconnière, Neuchâtel, 1948 (3 tomes, p. XXXIX).

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

المركزية الرهيبة المنظّمة على نحو لا يقهر لجغراسية العالم الذي يُقال عنه إنه «العالم الحديث». ولكن، كما كل الأساطير، لم تستطع هذه التي نحن بصددها هنا أن تجد سبيلها إلى البناء إلّا انطلاقاً من أحداث تأسيسية أدّت إلى بلورة مشاعر وعواطف تمّ نسيان جذورها الأصلية لتعيش حياتها الخاصة، فتغيّر من شكلها وتعبّر عن نفسها بطريقة مختلفة وتتكيّف مع الأزمنة الجديدة وتتالي الأحداث التي غيّرت وجه العالم.

تلك كانت حال الأسطورة المتمحورة حول الحياة الملحمية لآلهة كل من الإغريق والبابليين أو المصريين القدامى. ولقد أَلَمَّ الضعف بهذه الأساطير الغنيَّة حتى آلت إلى الزوال، بفعل انبثاق الديانات التوحيدية المتلاحقة - أي اليهودية، والمسيحية والإسلامية -، والتي بدورها استقطبت مواطن جديدة للخيال في كل من أوروبا والمشرق. ولقد لعبت الديانات الجديدة، وبخاصة منها المسيحية والإسلام، دوراً تشييدياً قوياً للغاية، حلّ محل أوضاع التفكّك والتشتّت للمؤسّسات الإغريقية-الرومانية التي كانت قد بسطت سيطرتها ونفوذها على هاتيْن المنطقتيْن لقرون عدة، وهذا ما ننزع في الغالب إلى نسيانه. وفي هذه البلاد، حيث بدت أجراس الكنائس ودعوات المؤذّنين إلى الصلاة كأداة ضبط لإيقاع الحياة اليومية، ما من شيء كان ليسمح بالتنبّؤ بالقدر الاستثنائي لأوروبا مستقبلاً. فبعد انهيار الإمبراطورية الرومانية الجِرمانية المقدّسة، لم تكن الأراضي الأوروبية مشكّلة في الواقع إلّا من عددٍ كبير من الإمارات الإقطاعية. وبالكاد بدأت الدول القومية الكبرى بالانبثاق؛ في الحيّز الفرنسي والبريطاني وشبه القارة الإيبيرية (أيْ الإسبانية مستقبلاً) . وفي المقابل، كان المَشْرِق مَقَرّ تعاقب من الإمبراطوريات والسَّلْطنات القوية النَّافذة، التي كانت تبسُط سيطرتها على قسم كبير من المساحات الشاسعة الآسيوية والتي بدأت بغزو الإمبراطورية الهندية. فكيف نشرح، إن نحن اعتمدنا هذه الركيزة، «أعجوبة» أوروبا الصغيرة الحجم جداً، تلك القارة المفتَّتَة والضعيفة، التي استطاعت، وفي غضون قرون قليلة، أن تبسُط سلطانها على القارات الأخرى؟

إن هذا القدر الاستثنائي، كما سنرى في الفصل الثالث من هذا الكتاب، لا يوحي أبداً بأنه يمكن أن نعزو بذور عظمة أوروبا ووحدتها بوصفها كِياناً متجانساً بفعل قِيَمه وبنيته المجتمعية-الاقتصادية، إلى أحداث مؤسِّسة تعود في التاريخ إلى

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

عشرات من القرون. وقد بدأت هذه الطريقة في إعادة كتابة تاريخ القارة الأوروبية تتوسع بشكل مكثّف منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. فالدمار والخراب اللذان خلّفتْهما الحربان العالميتان دفعا فعلياً باتجاه اعتماد شكل تنظيمي للقارة الأوروبية يجنّبها مستقبلاً مكابدة كوارث من هذا النوع. وأتت النتيجة سلسلةً من المؤلّفات انكبَّ أصحابها فيها على إعطاء طابَع مثالي لتاريخ أوروبا، وهو نهج كُرّس لإبراز الثوابت المفتَرَض تواجدها في القِيم والتقاليد والعادات المسلكية العائدة للشعوب الأوروبية المختلفة منذ أقدم الأزمنة. ومما يؤكّد ذلك بشكل معبّر للغاية هو مؤلَّف المؤرِّخ الفرنسي الشهير جاك لوغوف (Jacque Le Goff)، أَوُلِدَت أوروبا في القرون الوسطى؟[40] *(L'Europe est-elle née au Moyen Age?)*، الذي ستكون لنا عودة إليه في الفصل الثالث من كتابنا هذا.

وهكذا، أمكن لدِنيس هاي (Denis Hay)، وهو مؤرِّخ إنكليزي، أن يكتب في العام 1968 في مقدمة الطبعة الثانية لمؤلَّف (صَدَر له أصلاً في العام 1957) حيث كان يقصِد إعادة تشكيل تاريخ الأفكار في أوروبا، التالي:

«يبدو أن عدداً من الأساطير الجديدة هو في طور الإعداد في الكتب التي صدرت مؤخراً حول ما يسمى بـ «الفكرة الأوروبية»؛ وفي نِيَّة أصحاب هذه الكتب الارتقاء بالوحدة الأوروبية وتشجيعها، وهو ما يُقبِلون عليه متوسّلين تعميمات ضخمة بشأن الماضي. وفي رأي بعض من هؤلاء المؤلفين، فإنَّ الأبحاث من هذا النوع، تشكِل حصرياً سياق المشكلات المعاصرة»[41].

وينبري هذا المؤرّخ مُديناً بقوة التعميمات التاريخية التي لا أساس لها إذْ تهدف على وجه الحصر إلى «تِبيان الجذور العميقة لأوروبا ولِوَعْيها المقدَّر سلفاً في وحدة محتّمة». ويضيف هاي قائِلاً إنّ هؤلاء المؤلفين ليسوا إلّا «شعراء خالصين»، و«ينبغي

---

(40) انظر جاك لوغوف، أتكون ولادة أوروبا في القرون الوسطى؟ Jacques le Goff, *L'Europe est-elle née au Moyen Age?* Seuil, Paris, 2003.

(41) انظر دينيس هاي، أوروبا: انبثاق فكرة Denis Hay, Europe, *The Emergence of an Idea*, *Edinburg University Press*, Edinburgh, 1968 [1957], p. XVII.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

أن يكونوا لدى المؤرخين موضِع شك وارتياب»[42]. وسرعان ما يستشهد بفِقْرة من مؤلَّف فرنسي حول موضوع الفكرة الأوروبية كمثال عن النوع، يستحيل في رأيه ترجمتها إلى الإنكليزية:

«ليس لأوروبا من حدود؛ ولكنَّ لها وجهاً، وما من أحد سيخطئ في الأمر. ولا ينبغي أن نخشى إضافة - وعلى الرغم من سوء استعمالنا لهذه الصورة - أنَّ لها روحاً تنبِض بها، وفيها يستقر كلّ من كنزها المنيع ومنبع قوتها. وكل ما تبقّى مظهر ولباس؛ وليس في أية حال، من التوابع أو اللواحق، ولا هو مما يُسْتَخَفّ به. فهنا، يلتصق اللباس باللحم، والمظهر هو الكيان نفسه. ولا تتواجد الفكرة إلّا إن هي تجسَّدت في الواقع الذي تتجاوزه، وإن كانت لا تستطيع الاستغناء عنه. ولكنها على العكس متأصِّلَة في هذا الواقع، وهي تخرج منه شيئاً فشيئاً كما الثمرة من البذرة. وهذا الفن التعليمي الإرشادي هو الذي يَسهر على تلك الزيجات الغامضة التي اقترن بموجبها الفكر بالحركة، فأنجبا حضارتنا»[43].

وثمَّة مؤرّخ بريطاني آخر، هو أنطوني باغدن (Anthony Pagden)، نشر بإشرافه في العام 2002 مؤلَّفاً جماعياً حول التاريخ الثقافي والسياسي العائد لفكرة أوروبا. ومع أنه يقول لنا بوضوح إن مسار هذا التاريخ ليس تواصلياً على الخط ذاته، إلّا أنه يعود به إلى زمان العصور القديمة. ولا يكمن الهدف المعلَن للمؤلَّف في حلّ «مُعْضِلات أوروبا الرّاهنة»، وإنما في إضافة «صوت تاريخي إلى النقاش الدائر منذ عدّة عقود في أوروبا كما في خارجها، والذي سينبثق منه نظام اجتماعي، وسياسي وثقافي محتمل وجوده وأقل خطراً»[44].

---

(42) المصدر السابق، ص 18.

(43) إن هذا النص الوارد في الصحيفة 18 من كتاب هاي (Hay) باللغة التي كتب فيها، أي الفرنسية، يعود إلى برنار ڤوايين (Bernard Voyenne)، في كتابه **تاريخ الفكرة الأوروبية** *Histoire de l'idée européenne*, Payot, Paris, 1964.

(44) انظر ص 20 في كتاب صدر بإدارة أنطوني باغدِن بعنوان **فكرة أوروبا: من الأزمنة القديمة إلى الاتحاد الأوروبي** Anthony Pagden (dir.), *The Idea of Europe. From Antiquity to European Union*, Cambridge University Press, Cambridge, 2002. وانظر أيضاً المؤلّف

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

غير أنَّ جان-باتيست دوروزيل (Jean-Baptiste Duroselle) (1917 - 1994)، الأخصائي الفرنسي البارز في تاريخ العلاقات الدولية، هو مَنْ نَدين له بالتحذير الأكثر رزانة واتزاناً من الخَلْط بين مهنة المؤرّخ ومهنة أصحاب الصياغة الإيديولوجية للأسطورة الأوروبية، فيكتب قائلاً:

«فَلْيُغْفَر لي إن أنا بدأت هذا الكتاب بإرساء أسس النقاش. إذ يبدو لي فعلاً أنَّ المؤرّخ، أياً كان عمق "انتمائه الأوروبي"، يجب عندما يكتب التاريخ أن يفكّر ويكتب كمؤرّخ وليس كأوروبي. ذلك أن الموقف المنحاز للأوربة ("européiste")، كما يقول كارلو كورشيو (Carlo Curcio)، الذي لن أتأخر فأتكلم عنه، يؤدي إلى أن يُسقط على الماضي حقيقة هي اليوم حيّة فعلاً. ومَنْ يفعل ذلك، إنما يحرّف الماضي ويشوّهه، وبهذه الطريقة يصبح الحاضر غير مفهوم. من المؤكد أنّه كان هناك، إضافة إلى كل من م. م. دو كودَنْهوف-كاليرجي (M.M. De Coudenhove-Kalergi)، وجان مونيه (Jean Monnet) وغيرهم رجال سبّاقون حلموا بشيء ما. غير أنَّ الفارق الكبير بينهم وبين الروّاد، يتمثّل في أنهم انطلقوا في التفكير من واقع سياسي واقتصادي واجتماعي لم يرتبط بواقع القرون المنصرمة إلّا بصلات بعيدة. فهم رأوا قارة أوروبية قامت هي نفسها بتمزيق وتدمير نفسها؛ وهم رأوا غياباً للقوة في ما كان صلب القوة؛ وهم رأوا أطلالاً حيث كان للثراء أن يزدهر. وهم رأوا على جنبات أوروبا في الولايات المتحدة وروسيا قوّتين تتصبان وتهدّدان بدرجات متفاوتة بامتصاص وطن الحضارة القديم. فخطرت في بالهم، كما في بال غيرهم، تلك الفكرة المثمرة القائلة بأن وحدة الأوروبيين هي وحدها القادرة على الحَوْول دون هذا الامتصاص»[45].

= الجماعي التالي بإدارة رينيه هربوز، مسّاحو أوروبا *Les Arpenteurs de l'Europe* (préface d'Edgar Morin, avant-propos de Jacques Le Goff), Actes Sud, Paris, 2008.

(45) انظر ص 18 من مؤلّف جان-باتيست دوروزيل، فكرة أوروبا في التاريخ:

Jean-Baptiste Duroselle, *L'Idée d'Europe dans l'histoire*, Denoel, Paris, 1965.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

وسرعان ما يضيف دوروزيل قائلاً:

«ولا جَرَم أن تلك الفكرة لم تأتهم مسلَّحة بالحجج، مجهَّزة بالشّواهد، صبيحة يوم ربيعي من العام 1945. ذلك أنّ كلّاً من م. دوكودنهوف . كاليرجي وج. مونيه قد لعبا دوراً في بروزها، الأول قبل العام 1924، والثاني منذ الحرب العالمية الأولى. ولكن انحطاط أوروبا، الذي راح الجميع يتحدثون عنه بعد العام 1919، أصبح أكثر جلاء وأكثر إثارة للخوف بكثير بعد حصول الحرب العالمية الثانية. يومها، ما عادت الأوهام ممكنة. فجماهير المواطنين الذين وقفوا مذعورين مشدوهين أمام الكارثة - بل إنَّ الجميع، حتى المنتصرون، خبِروا الكارثة وكابدوها - شعروا فعلاً بأن الكلام الرنَّان والمفَخَّم لم يعد يكفي؛ وكثيرون هم الذين أدركوا أنَّ من بين الوسائل المطروحة للخروج من الهاوية واجتناب الهلاك، كانت الوحدة الأوروبية حلاً مغرياً»[46].

وفي مكان آخر من مقدمته، يكتب دوروزيل قائلاً:

«ولكن هنا، لا بُدَّ من ظهور تفصيلات جديدة. فمن المؤكد بداءة أنه ليس باستطاعتنا محاولة توصيف "فكر" أوروبا، و"جوهر" أوروبا، في عصر معيَّن، وذلك لسبب بديهي هو أنه لم يوجد أبداً "فكر"، و"جوهر" من هذا النوع، وأن محاولة توصيف أيّ منهما قد تعني بالتالي فصل سلسلة مُعيّنة من العوامل التي نختارها اختياراً اعتباطياً، عن واقع معقّد، فننتهي بذلك إلى تبسيط الحقيقة واختزالها، أي إلى تشويهها. وقد نرتضي القول إن جوهر أوروبا إنَّما يكمن في كونها مسيحية، أو في كونها انتصاراً للحرية العلمانيّة، أو في كونها بلاد العقل أو موطن الحدس، ومَهْد القومية أو القوة التي تقلِّص من القومية وتحدّها. ويسعنا، بناءً على ما يقوله كورشيو، الجزم بـ "أنها اشتراكية، أو ليبرالية، أو كاثوليكية أو امبريالية"... إنَّ أوروبا الليبرالية التي دعا إليها كروس (Croce)، وتلك الاشتراكية التي انتصر لها كول (Cole)،

(46) المصدر السابق، ص 18.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

وتلك المسيحية التي دافع عنها داوسون (Dawson)، وتلك الكاثوليكية التي آمن بها غاسبيري (Gasperi)، وتلك الديموقراطية التي شدا بها العديد مِمَّنْ يقودون جَوْقات الديموقراطية، وتلك الأرستقراطية والعقلانيّة التي رفع رايتها كل من ڤاليري (Valéry) وبندا (Benda)، وتلك الشيوعية الماثلة في نظريات البَلْشَفِيَّة (...)، كل هذه الرؤى في أوروبا، لا تمثل أوروبا الحقيقية الوحيدة»[47].

ومن المهم كذلك الإشارة إلى أن دوروزيل، بوصفه كاتباً مدقّقاً، يعترف بما يَدين به للمؤرّخ الإيطالي كارلو كورشيو (1898-1971)، الذي كتب في العام 1958، تاريخ الفكرة الأوروبية[48]، مع الإبقاء على تحفّظه على «المغالاة» التي ارتكبها زميله يوم جزم باستمرارية الفكرة الأوروبية، كما على التأكيد المبالغ فيه بشأن «تناقض الشرق والغرب» الذي كان لهذا الأخير «أن تَبَيَّنَه لدى أرسطو، ومن ثَمَّ لدى سلالة مديدة من المؤلفين». ويضيف دوروزيل، فيدعونا إلى أن نسعى فقط إلى معرفة ما إذا كان هناك من استمرارية للفكرة، ليقول: «لو ادَّعَيْنا نِيَّتَنا باستنتاج استمرارية ما، فإنّنا نكون قد اتخذنا موقفاً مسبقاً»[49].

وفي ختام مؤلَّفه الملفِت الرائع، يعبّر دوروزيل، وهو الذي درج على اعتماد الدّقة والتَّبصر في ما يحرّر عن ارتيابه البالغ بشأن الفكرة القائلة بوجود تاريخي للحضارة الأوروبية، فيكتب قائلاً:

«إنَّ ما أراه في أوروبا، بوصفها حضارة، هو التنوع والتناقض اللذان دُفِع بهما إلى حَدّ لم يُعرف له نظيرٌ في ما تبقّى من العالم؛ وهذا التّنوع وذاك التناقض، ملازمان لكل واحدة من أُمَمِنا، وهما إجمالاً، إذا صَحّ التعبير، السّمة المشتركة الوحيدة فعلاً بينهما. فأنا لا أرى، في أيّ

---

(47) م.ن.، ص 23.

(48) انظر كارلو كورشيو، أوروبا: تاريخ فكرة Carlo Curcio, *Europa, Storia di un idea*, 2 vol., Vallecchi, Florence, 1958.

(49) انظر Jean-Baptiste Duroselle, *L'Idée d'Europe dans l'histoire*, p. 23.

ونلفت إلى أن الحرف الطباعي الإيطالياني في النص الفرنسي وهذا المعرّب هو من اختيار المؤلّف دوروزيل.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan

من أُمَم أوروبا الغربية، الرّتابة، والامتثالية، والوحدة الإكراهية التي تتَّصِف بها الأيديولوجية السوفياتية، ولا أرى الضّغط الاجتماعي العملاق الذي يميّز الولايات المتحدة. وبالتالي، فإنَّ وحدتنا هي وليدة عجزنا عن تحديد هويتنا، وذلك أكثر من الشعوب الأخرى. ولست أكيداً من استطاعتنا إطلاق تسمية "الحضارة الأوروبية" على هذا الأمر»[50].

وفي رأيه، تبقى أوروبا تنتظر مَنْ يبتدعها؛ غير أن ظروف الحربين العالميتين وما تَسَبَّبتا به من خراب وأضرار توجد ظروفاً ملائمة لهذا «الابتداع»، وهو لفظ يستخدمه مرة تلوالأخرى ليوضح بجلاء اختلافه عن غيره من المؤرخين الذين كتبوا في الفكرة الأوروبية. وهو يلفِت كذلك إلى تأثير سياسة الولايات المتحدة التي تقرر «احتواء» كل من الاتحاد السوفياتي والصّين التي باتت بدورها شيوعية. ومن هنا، خطَّة مارشال (Plan Marshall) الشهيرة، التي وضعت الأسس الأولى للتوحيد الاقتصادي لأوروبا الغربية، كما عملت على إرساء منظمة دول حِلف شمالي الأطلسي (الناتو)، الذي لن يطول بها الأمر حتى تصبح الذراع المسلّحة للقوة الأميركية العظمى، وهي أضحت الحليف الدائم منذ ذلك الحين لدول أوروبا الغربية. وهكذا تتخذ فكرة الغرب - وهي التي كانت قد بقيت حتى ذلك التاريخ أسطورية وتخيّلِيّة - أولى عناصر التماسك المؤسساتي لتصبح بالتالي مهيمنة على كل أنواع الخطاب. وهي ستحل تماماً محلّ المفاهيم المتعلقة بالحضارة الأوروبية وأصولها، مع العلم أنَّها تقوم مع ذلك مقام الحَبْكَة والأنموذج لسرد تاريخي ذي طابع مثالي هادف إلى تحقيق التوطيد الأيديولوجي، وهو ما سنسعى إلى تِبْيانه في الفصل التالي من كتابنا هذا.

---

(50) المصدر عينه، ص 318-319.

Twitter: @ketab_n
STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: Linda Hamdan